عبد السميع المصرى

فى موكب الخالدين

* إبراهيم المازنى
* خليل مطران
* على محمود طه
* إبراهيم ناجى
* عباس العقاد

٢

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٨ - ١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــدمة

هذا هو المجلد الثانى من موكب الخالدين وهو كلمات كتبتها منذ أعوام بعيدة وكنت أحسبها قد ضاعت هباء وذرتها رياح السنين وعصفت بها يد النسيان لكنى علمت فيما بعد أنها نالت حظا غير قليل من التقدير بل والمناقشة فى بعض الرسائل العلمية وأخيرا امتدت لها يد العناية لتبعثها على الناس كتابا يقرأ .

إن ما كتبته عن إبراهيم عبد القادر المازنى محاولا أن أترجم له ظهر فى أعداد من مجلة الثقافة فى شهر يولية سنة ١٩٥٠ .

أما حديثى عن الخليل فقد ظهر بأعداد شهر أغسطس سنة ١٩٥٠ من مجلة الثقافة .

وأما الشاعر على محمود طه فقد امتد حديثى عنه إلى عامين واتصل بينهما من شهر ديسمبر ١٩٥١ إلى شهر يناير سنة ١٩٥٢ بمجلة الثقافة أيضا التى كانت منارًا للثقافة العربية فى دنيا العروبة وكانت على رأس الصحافة الأدبية فى العالم العربى . .

ولم يكن رائدى فيما كتبت شيئا سوى إنصاف المتَرْجَمْ لهم ونشر صفحة من حياتهم ليقتدى بهم الجيل الجديد فى كفاحه وجهاده .

وقد أحسست وأنا أجمع هذه الصفحات بعد وفاة العقاد توأم المازنى وشريكه فى الجهاد أعواما طويلة وأحد أعمدة « مدرسة الديوان » التى

نألفت من المازنى والعقاد وشكرى ... أنها ناقصة ولن تكتمل إلا إذا كان للعقاد نصيب فيها فأكملتها .

وإذا كان العقاد عميد مدرسة الديوان فإن إبراهيم ناجى أحد أعمدة مدرسة « أبوللو » الشعرية لذلك أضفت إلى الكتاب ترجمة قصيرة لناجى حتى تكتمل هذه الصورة من تاريخ الأدب العربى فى حقبة زاخرة بالأدباء والمعارك الأدبية والنقاد المبدعين .

إنها تحية تقدير ووفاء لخمسة من أعلام الشعر والأدب العربى المعاصرين بكلماتها كما نشرت أول مرة .

القاهرة فى أول سبتمبر سنة ١٩٩٤

عبد السميع المصرى

إبراهيم عبد القادر المازنى

المازنى ... تلك البسمة الساخرة التى ارتسمت على فم الأدب العربى زهاء أربعين عاماً ،وذلك الصوت المدوى الذى تجاوبت أصداؤه فى أنحاء العالم العربى ثائرة مستثيرة حقبة من الزمان ، ما كان ينقضى فيها يوم دون أن نطالع للمازنى مقالاً أو يخرج علينا بكتاب ، وما نكاد نمسك مجلة إلا ونجد فيها للمازنى حديثاً أو مقالاً .

وكان المازنى من الرعيل الأول الذين تقدموا الصفوف وحملوا مشاعل التجديد فى مجتمعنا الشرقى وأدبنا العربى ، محتملين كل تضحية ، معرضين لكل نقد وتجريح ، صابرين على كل أذى ومكروه فى سبيل تبليغ رسالتهم وتأدية أمانتهم .

وقد أعانته طبيعته الثائرة وما اكتسبه من جلد وصبر فى مغالبة ظروف الحياة القاسية على الاضطلاع برسالته واحتمال أعبائها ؛ وكأنى بالقدر كان يعده لهذا العمل العظيم الذى قام به ، لأن المازنى قد ولد فى الحادى عشر من يناير سنة ١٨٨٩ فى حى الدرب الأحمر من أحياء القاهرة القديمة ، وكانت أسرته من الأسر المتدينة الحريصة على آداب الدين والتقاليد ؛ فللأخ الأكبر احترامه ومقامه فى البيت لمرتبته فى السن ، وللوالد منزلته التى تقارب التقديس .

وكان والده من أصحاب الطريق أو مشايخ الطرق ، لأن المازنى يحدثنا عن وجود مصلى وميضأة بالمنزل ، وغرف للأتباع والتلاميذ والمريدين على جانبى المدخل .

وقد ألحق المازنى بالكتَّاب ، لكنه هرب منه لقسوة الشيخ والعريف ، فأدخل المدرسة الأولية ، ثم مدرسة القربية ، وكانت بحى الدرب الأحمر

قريبة من منزله ، لكن أباه توفى بعد التحاقه بها بأشهر قليلة ، وكان لم يتجاوز السادسة من عمره .

وهنا بدأت ظروف الحياة تقسو على هذه الأسرة الفقيرة حتى اضطرت إلى الاستغناء عن كثير من ضرورات الحياة ، ويسهب المازنى فى الحديث عن هذه الفترة ويبرز أهمية الدور الذى لعبته أمه فى حياته .

فهى التى وقفت فى وجه أخيه وأقاربه عندما أرادوا توظيفه بعد أن نال الشهادة الابتدائية ، فأبت عليهم ذلك وأصرت على إتمام تعليمه ، ودفع نفقات هذا التعليم ولو ببيع أثاث البيت ، وهكذا أكمل المازنى تعليمه الثانوى فى المدرسة الخديوية ، ثم التحق بعدها بمدرسة المعلمين .

ولا شك فى أن إصرارها على تعليم ولدها وقيامها بأداء هذه المهمة السامية عمل جليل فى ذاته ، وكان له أثر بليغ فى حياة هذا الوليد ، لكنى لا أرى لهذه السيدة الطيبة أثرًا فى حياة ابنها أبعد من هذا ، ولو أن المازنى يحاول إفهام الناس فى بعض أحاديثه خلاف ذلك لما يشعر به من عظيم فضلها عليه بتعليمه .

ولقد التحق المازنى بعد أن تخرج فى مدرسة المعلمين عام ١٩١٠ بمهنة التدريس فعمل فى المدرسة السعيدية ، ثم ترك التعليم الأميرى للتعليم الحر ، ثم آثر بعد ذلك الصحافة على عالم الوظائف بعد أن كان اسمه قد بدأ يلمع – وهو فى وظيفته – فى مجلة البيان وغيرها .

وأول عمله فى حقل الصحافة كان مع المرحوم أمين بك الرافعى فى مجلة الأخبار ، ثم اشتغل بعد ذلك فى الكشاف والسياسة والسياسة الأسبوعية والبلاغ والاتحاد [1] .

أما فى أيامه الأخيرة ، فكانت مقالاته ، لا تكاد تخلو منها مجلة ،

---

(١) العدد ٥٥٥ من الثقافة .

فهو يكتب فى جميع صحف دار الهلال « المصور والاثنين والهلال » وأخبار اليوم وآخر ساعة ومسامرات الجيب والنداء ، وقد كان إلى جانب هذا النشاط المنقطع النظير عضواً عاملاً فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، يعد له من البحوث ومواضيع الدرس فى كل دورة الشىء الكثير .

وقد ظل المازنى يكتب وهو على فراش المرض حتى اللحظات الأخيرة من حياته لم تفتر همته ، ولم تَخْبُ ابتسامته الساخرة من الحياة ، فكان يداعب طبيبه قبل وفاته بساعات قليلة قائلاً : « أتخشى أن أموت ، فيقال إنك أمت المازنى ؟ » .

وهكذا لقى الموت مستهزئاً به ساخراً منه فى مساء العاشر من أغسطس سنة ١٩٤٩ .

اعتداده بنفسه

كان المازنى شديد الاعتداد بنفسه إلى حد بعيد ، شاعرًا بتفوقه وامتيازه شعوراً قويًّا ، وهو لا يفتأ يذكر الناس بذلك فى كل سانحة تسنح له ؛ فانظر إلى مقدمة كتابه (حصاد الهشيم) تطالع قوله : « لست أدعى لنفسى فيها – المقالات – شيئًا من العمق والابتكار أو السداد ، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلابًا فكريًّا فى مصر أو فيما هو دونها ، ولكنى أقسم أنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجًّا ، وثمرة اطلاعى ، وهو واسع ، ومجهود أعصابى ، وهى سقيمة ، بأبخس الأثمان » ثم يقول بعد ذلك : « واعلم أنه لا يعنينى رأيك فيه – الكتاب – نعم يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثنى على بنيه ، ولكنه لا يسوؤنى أن تبسط لسانك فيه ، إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخذه منك ، وما أخلقنى بأن أضحك من العائبين ، وأن أخرج لهم لسانى إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كان تحت أنوفهم » .

بل إنه يختم كتابه بتلك الصفعة الأليمة يوجهها إلى جمهور قرائه :

« إنى مستغن عن رضى النقاد المتحذلقين عن كتابى هذا ، وقانع باستحسان أمثالى من الأوساط المتواضعين ، وهم بحمد الله كثيرون فى هذا البلد الأمىّ ، بل أكثر مما يلزم لى » .

وكأنى بالمازنى كان يشعر بتفوقه وعظمته كأى عظيم ، لكنه شعور زاده عمقًا إحساسه بأنه يكتب – وكان ذلك فى أوائل العشرة الثالثة من القرن الحالى – إلى أقلية ضئيلة جداً من المتعلمين وأقلية تافهة من أنصاف المتعلمين الذين عبر عنهم بالأوساط المتواضعين ، وأنه وجد فى بلد أمى لن يقدر نبوغه وعبقريته ، ولذا فهو يائس من هذا البلد ، ويملأ اليأس فراغ قلبه ويردده بين حين وآخر فى صيحات يرسلها على الناس لتنبههم من غفلتهم ؛ فتراه يقول لقراء كتابه حصاد الهشيم : « هذه مقالات مختلفة فى مواضيع شتى ، كتبت فى أوقات متفاوتة وفى أحوال وصروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح ، وقد جمعت الآن وطبعت وهى تباع المجموعة بعشرة قروش لا أكثر .. وتعال نتحاسب ، إن فى الكتاب أكثر من أربعين مقالا تختلف طولا وقصراً وعمقًا وضحولة ، وأنت تشترى كل أربع منها بقرش ! وما أحسبك ستزعم أنك تبذل فى تحصيل القرش مثل ما أبذل فى كتابة المقالات الأربع من جسمى ونفسى ومن يومى وأمسى ومن عقلى وحسى » .

تأمل ! إنه يحاسب قارئه عن القرش وعن المنفعة المادية لا المتعة الروحية ولا الفائدة العقلية ، وكأنه يستبعد على هذا القارىء أن يفهم ما يكتب المازنى أو يعيه أو يقدر قيمته .. قد يعترض معترض بأن المازنى اعتاد أن يركب الناس بدعابته ، لكن هذا الاعتراض مردود ، لأن أقل تأمل يدرك منه المرء أن المازنى كان جاداً فى سخره أقسى الجد وأعنفه ، وإنه ليسخر من قراء عصره وثقافتهم ، ويمضى فى هذه السخرية قائلا : « ثم إنك تشترى بهذه القروش العشرة كتابًا ، هبه لا يعمر من رأسك خرابًا ولا يصقل لك نفسًا أو يفتح عينًا أو ينبه مشاعر ، فهو – على القليل – زينة

على مكتبك ، والزينة أقدم في تاريخنا معاشر الآدميين النفعيين من المنفعة وأعرق ، والمرء أطلب لها في مسكنه وملبسه وطعامه وشرابه وأكلف بها مما يظن أو يحب أن يعترف . على أنك قد لا تهضم أكلة مثلا فيضيق صدرك ويسوء خلقك وتشعر بالحاجة إلى التسرية والنفث ، وتلفى أمامك هذا الكتاب ، فالعن صاحبه وناشره ما شئت ! فإني أعرف كيف أحول لعناتك إلى من هو أحق بها ! ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتنكب به غيرك ... أو تفككه وتلفف في ورقه المنشور ما يلف ، أو توقد به ناراً على طعام أو شراب أو غير ذلك .. أفقليل كل هذا بعشرة قروش ؟ » .

ويرجح لدى أن هناك أسبابًا أخرى لهذه المبالغة في الاعتداد بنفسه ، ولعل أهم هذه الأسباب شعوره بالنقص ... نقص مرجعه البيئة أولاً ، وقد كان المازني من بيئة محافظة متدينة لا تريم عن التقاليد الموروثة والعادات القديمة والآداب الدينية ، بينما اندفع هو في ثورة على هذه المواضعات وأخذ نفسه بتعاليم الغرب ، وكأنه كان يخشى النكسة فكان يبالغ بالتظاهر بغر بيته .

والسبب الثاني لهذا الشعور هو قصر قامته قصراً جعله يريد أن يوهم الناس جميعًا أنه عملاق .. عملاق في الأدب أو عملاق في الأثر ، وقد كان شعوره بقصره فادحًا ، وليس أدل على عمق هذا الشعور من هذه الحادثة التي يرويها عن نفسه ، وهي أنه كان أستاذاً في إحدى المدارس الثانوية — وكان التلاميذ حينئذ في مدارسنا الثانوية رجالاً ذوي شوارب وأجسام ضخمة — وقد لمحه الناظر ذات مرة واقفا في فناء المدرسة في وقت الدرس فحسبه تلميذاً فاقترب منه وصفعه على قفاه صفعة أطارت طربوشه ... والمازني يروي هذه القصة وما زال يذكرها برغم اتهامه نفسه بضعف الذاكرة .

ثم هذه الضائقة المالية التى أصابت أسرته بعد فقد أبيه وما عانته هذه الأسرة من شظف العيش ومن ضروب الحرمان ، وما خبره فى هذه الفترة من جحود الناس وانعدام روح الخير بينهم حتى قال : « وأحسبنى من أسوأ الناس ظناً بالناس ؛ ومن طول ما وطنت النفس على معاناة الشر والأذى والمتعبات والمنغصات صرت لا يروعنى حادث مهما جل ، والذين يعرفوننى يظنون هذا جلدا ، ولكنه ليس من الجلد فى شىء ، وإنما هو ثمرة ما تقرر فى نفسى من سوء الظن بالدنيا والناس » .

وطبيعى أن المازنى إزاء هذه الظروف كان مضطراً للاعتماد على نفسه وعلى مقدرته على مغالبة الحياة ومجالدة ظروفها ، مستقلا برأيه مستغلا مواهبه الخاصة وحيويته ، غير منتظر معونة من أحد من الناس .

وقد نجح المازنى فى حياته المستقلة هذه ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يعتز بشخصيته ويترفع عن الناس ، لا سيما من كان يرجو العون عندهم إبان ضعفه فوجد عندهم الإعراض ، فلم يتوان هو عندما اطمأن إلى مكانه فى معترك الحيـاة عن الإعراض عنهم واحتقار شأنهم حتى قال يوماً : « فى الهند طائفة يحقـرها بقية الهندوكيـين ويعدونها من المنبوذين . . وأنا لا أحتقر أحداً ، ولكن ذوى الألقاب عندى منبوذون — أعنى أنى أنفر منهم وأكره مجالسهم وأتقى مخالطتهم وأوثر عليهم البسطاء الفقراء بل حتى الجهلاء والأميين ، وأرى لى عطفاً عليهم وحبًّا لهم وفهماً وإدراكا لأسـاليب تفكـيرهم وسـروراً بحديثهم وإن كان تخليطاً [1] » ، وقال مرة أخرى معبراً عن اعتزازه بنفسه وطريقته فى الحياة فى معرض حديث عن المجتمعات الراقية وحفلاتها التى كان قلما يجيب الدعوات إليها : « إنها مجتمعات حافلة بمظاهر التصنع والرياء والنفاق والتكلف الثقيل ، كلا يا سيدى (يفتح الله) إن بجلبابى الفضفاض وجلستى الهادئة البسيطة أنعم بما لا ينعم به إنسان » .

(١) أخبار اليوم عدد ١٧ / ٩ / ١٩٤٩ .

وكان المازنى مؤمناً برسالته فى الحياة معتقداً أنها أسمى من كل رسالة أخرى فى الوجود ، محبًّا لها ، ولا سيما لما منحته من حرية فى التفكير والحياة ، ولذلك كان ينفر من الأحزاب السياسية ، ولا يطيق فكرة الانضمام إليها ، وقد قال عندما طلب منه ذلك : « لقد تركت وظائف الحكومة لأنى لا أطيق القيود ؛ فكيف أقيد نفسى بأغلال الحزبية الثقيلة ؟ إنى اليوم حر أكتب ما أشاء ، وأقول للمحسن أحسنت ، وللمسىء أسأت . . . فدعنى بالله من هذه القيود وتلك المظاهر » (١) .

والكتابة عنده أسمى وأرفع من أى وسيلة أخرى من وسائل خدمة المجتمع ،ولذلك كان يأبى أن يرشح نفسه للنيابة أو أن يسعى إليها ، وقد قال يوماً : « لقد خلقت كاتباً وسأظل كاتباً أخدم بلادى عن طريق الصحافة (٢) » عندما أَلَحَّ عليه سكان حيه فى ترشيح نفسه عنهم .

وأظن أن المازنى قد بلغ بذلك أقصى حدود الاعتداد بالنفس والإخلاص لرسالته فى الحياة .

مدرسة المازنى

هل كان للمازنى مدرسة ؟ :

إذا كان المقصود بالمدرسة مذهبًا جديداً فى الأدب أو الفلسفة ؛ فلا أظن أن المازنى قد جاءنا بجديد فى هذا الباب ، وإنما كان المازنى قائد جيل من الأدباء .

وقد عاصر المازنى فترة انتقال خطيرة فى تاريخ الآداب العربية ، وكان على المازنى وزملائه كالعقاد وطه حسين أن يقودوا ثورة على القديم وأن يحطموا الأصنام المعبودة والمقاييس الجامدة التى أحيط بها الأدب العربى ، وأن يزلزلوا عقائد معاصريهم فى قدسية كل قديم ، ولذا كان العمل

(١ و ٢) من مقال لأحمد المازنى بالهلال .

الأساسى هدمًا وتمهيدًا لما بعده ، وكان على المازنى أن يكون معول هدم أولاً ليستطيع أن يبنى ، وقد كان يدرك دوره ويشعر به ويحسه ؛ فهو يقول فى حصاد الهشيم (ص ٢٦٤) فى معرض حديثه عن الآنسة مى : « وأنا أيضًا أكتب وأقرض الشعر ، فما مصير كل هذا الذى سودت به الورق وشغلت المطابع وصدعت القراء ؟ إنه كله سيفنى ويطوى بلا مراء ؛ فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق وبتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم ؟ ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟ من الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهدين الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد ؟ » .

وبرغم إشفاقه من الفناء وعدم خلود الذكر إلا أنه يمضى قدمًا فى رسالته ويدعو إلى التمرد على الأوضاع القديمة ويلتمس لنفسه العذر من هذا التمرد فى حديثه عن ابن الرومى فيقول : « وعذره من هذا التمرد عذر كل فرد حساس مصقول النفس مثقف العقل ، تصطدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال ، وليس أقسى من أثر ذلك فى النفس ولا أوجع ، ولسنا نحتاج أن نرجع إلى عصره بصفة خاصة ؛ فإن الحياة كانت قديمًا وما زالت إلى الساعة ، وستظل إلى آخر الزمن إن كان له آخر ، صراعًا دائمًا وجهادًا متواصلاً ؛ وما نظن الحياة الإنسانية خلت قط من بواعث السخط ودواعى التذمر ، وما كان المرء ليهتدى إلى جانب هذا – أو قبله – بحدود قدرته وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة أو يحدد هذا المجال ، وقد يعين الجهل أو البلادة على الرضى وإشعار النفس الراحة الحيوانية ، فلا يرى المرء فيما يحيط به ويضيق عليه إلا عدلاً مقنعا وضرورة لا مهرب منها ولا خير فى التبرم بها » .

فهو هنا يعرض بهؤلاء المستسلمين للواقع القانعين بالدون من الحياة ، لكنه هو أحيانًا يستشعر التعب من طول عنائه فى إفهام الناس أغراضه

وأهدافه من كتاباته التى لم يرم بها إلا إلى الإصلاح ، فتراه يقول : « رأيت عجبًا أيام كنت أنشر هذا النقد ، من ذلك أنى كنت إذا قلت إن حافظًا أخطأ فى هذا المعنى أو ذاك ، قال بعضهم : (لم يخطىء حافظ وإنما تابع العرب وقد ورد فى شعرهم [1] أشباه ذلك) كأن كل ما قال العرب لا ينبغى أن يأتيه الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرءًا من كل عيب ... إلى غير ذلك مما يغرى المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول ! » .

« وإذا فرضنا أن العرب أصابوا فى كل ما قالوا أفترى ذلك يستدعى أن نقصد قصدهم ويحتذى مثالهم فى كل شىء ونحن لا نحيا حياتهم ؟ ألسنا الوارثين لغتهم وللوارث حق .

ولعل أهم ما كان يعانيه تشبث القوم باللفظ والتركيب واستخفافهم بالمعنى وكأنه ليس هناك للأدب رسالة فى الحياة سوى تجويد صنعة الألفاظ وإتقان أبواب النحو والصرف لا الترجمة عن معانى الحياة وخلجات النفس .

ولتقرأوا معى هذه الصيحة الصادرة من الأعماق وفيها يبرز المازنى فى أسلوب شعرى جميل – يفصح عن آلام نفسه – أهدافه الأدبية محاولاً شرحها للناس : « وكأنما شاءت الأقدار أن يذيب أحدنا نفسه ويعصر قلبه وينسج آماله ومخاوفه التى هى آمال الإنسانية ومخاوفها ، ويستورى من رفات آلامه شهابًا يضىء للناس وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس أخًا حنانًا يؤازره ويعينه على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن إحساسات خياله التى ربما التبست على القارىء لفرط جدتها أو غابت فى مطاوى اللفظ واستسرت فى مثانى الكلام » .

« أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر :

---

(١) حصاد الهشيم : ص ٢٣١ .

ياضيعة العمر ! أقص على الناس حديث النفس وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد فيقولون ما أجود لفظه أو أسخفه ! كأنى إلى اللفظ قصدت . . . وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم لو تأملوها نفوسهم بادية فى صقالها ، فلا ينظرون إلا إلى زخرفها وإطارها ،وهل هو مفضض أم مذهب ، وهل هو مستملح فى الذوق أم مستهجن ؟ وأفضى إليهم بما يعيى أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون : لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان ندك ! ما لهم لا يعيبون البحر بإعواج شطئانه وكثرة صخوره ؟ ياضيعة [1] العمر ! » .

من هذا ندرك أن المازنى كان يعانى رهقًا وشدة فى حمل الناس على فهم مذهبه ، وكان من أهم أسلحته - كما أسلفنا فى نضاله الهدم وتحطيم الأصنام وزحزحتها عن قواعدها ، فبدأ بنقد شوقى وحافظ - وكذا فعل العقاد وطه حسين - وكان ذلك فى أوائل عهده بالصحافة سنة ١٩١٣ ، وعرض شعرهما على الناس وتلمس مواضع الضعف فيه حتى يؤمن الناس معه بأن قدسية القديم وهم باطل يجب التحرر منه وبأن الشعر يكون أفضل وأوفى بالغاية إذا عبر عن بيئته واستعمل أدوات عصره .

شاعريته

والسؤال الثانى الذى يتبادر إلى ذهن القارىء : هل كان المازنى شاعرًا ! وهو سؤال يجرنا الجواب عليه إلى الحديث عن الشعر أو إلى إيضاح رأينا فى الشعر ، لكنى سأوثر ترك المجال للمازنى ، ثم يكون الحكم للمازنى أو عليه من نفس أقواله .

يقول المازنى : « الشعر فن ذهنى غرضه العاطفة وأداته الخيال أو الخواطر المتصلة التى توجهها العاطفة وجهتها » أى أن المازنى يقصر

(١) حصاد الهشيم : ص ٢٣٣ .

وظيفة الشعر على التعبير عن العواطف والترجمة عن المشاعر وخلجات النفس ، أو هو يرمى إلى القول بأن هذه هى وظيفة الشعر الرئيسية .

ومع ذلك فقد رأيت المازنى فى معظم ما وقع لى من شوارد نظمه يريد أن يستخدم الشعر لإبداء آراء فلسفية أو مشاهدات علمية ؛ فهو فى إحدى قصائده يريد أن يحدثنا عن الخلود فيذهب إلى الجحيم ليتخذ منها مسرحًا لقصيدته :

ذهبت أجوس خلال الجحيم — وأنفض أجـــوازها والحجر
فما راعنى غير مرأى اللعين — إبليس يرمقـــــنى كالنمر

ولعله كان أكثر توفيقًا عندما حاول ترجمة بعض رباعيات الخيام عن الانجليزية :

إيه دعنى أغتنــــم هذا المدى — قبل أن يطوى ترابى فى الثرى
حيث لاخمـــــر ولا شدو ولا — قينة كلا ، وما من منتـــــهى

وقد ترجم المازنى الكثير غير ذلك من الشعر الأوربى العالمى ، ترجمة بلغت منتهى الدقة والروعة ، شفت عن عبقرية نادرة فى الترجمة ، لأنه كان يترجم إلى شعر عربى مع المحافظة كل المحافظة على أداء المعنى الأصلى أداء أمينًا .

لكن المازنى الشاعر إذا أراد أن يعبر عن خواطر نفسه وخلجات قلبه يأتينا بشعر ضعيف متهافت لم يتحرر من نزعة التفلسف كقوله :

مرت عشاء – بى – فـــتانة — يا حسنها لو أن حسنًا يدوم
والليل ساج شـــاحب بدره — كأنما أضناه طول الوجـــــوم
أمثل هذا الحـــــسن لما يزل — فى عالم الشر القديم العميم؟

ووفق نظرية المازنى فى الشعر أخلص إلى أن المازنى الناثر أشعر من

المازنى الناظم ، أى أن المازنى أقدر على تصوير خواطره وهواجسه نثراً منه نظماً . ولنتأمل معى هذه القطعة الرائعة من نثره يصف فيها ليل الصحراء فيسبغ عليه من حيويته حياة عارمة مليئة بالقوة والحركة : « وماذا يعرف عن الليل من يسكن المدن ويعيش بين أضوائها الناسخة للظلمة والمضيعة لوقعها فى النفس ؟؟ ها هنا الليل الطاغى العاتى يا من ألفتم نعومة الحياة وطراوة العيش . . . فوقك السماء لا تراها ، ولكن تحس أنها دنت منك وأسفت إليك ، فلو رفعت يدك لدفعتها ، وتحتك الرمل تغوص فيه قدمك وتريد أن تقتلعها منه ، ويأبى أن يدعها لك ، كأنما شوّقه طول الجدب إلى غرس ولو كان إنساناً ! ومن الريح فى أذنيك الرعد مرسلًا دافقاً – هل رأيت (الدوامة) فى الماء ؟ إليها تنحدر كل موجة وصوبها يجرى كل طاف ، فيها يغرق كل محمول على متن التيار – كذلك تكون أذناك للريح . . ففيهما ينصب صفيرها وإليهما يجرى مزمزمها ، إنما آضتا قطباً شمالياً يجذب الرياح من الجهات الأربع . . يا لفرحة الريح بطارق الصحراء ! » .

* * *

ولعل القصة أنسب أدوات الأدب لقراء العصر الحديث لما تهيئه لهم من فرصة الاستمتاع الأدبى السهل ولما تثيره فى نفس القارىء من رغبة فى القراءة ومتابعة أحداث القصة حتى نهايتها ، وللطريقة البسيطة التى تعرض بها مشكلات الحياة وآراء الكاتب ... لأن كاتب القصة لن يستطيع عرض رأيه أو عقيدته بطريقة مباشرة ، بل لا بد من إطار من الحوادث وسلسلة من العقد تنتهى إلى إبراز فكرته إبرازاً بسيطاً واضحاً ، وقد يكون غامضاً أو غير عميق ، ولذلك يميل السواد الأعظم إلى قراءة هذا النوع من الأدب .

ولعل هذا كله من الأسباب التى كانت تدعو المازنى إلى الاستخفاف بأدب القصة والإعراض عنه فى كثير من الأحيان مع أنه « لو عرف المازنى أن معدنه القصصى من أنفس المعادن لأفسح الطريق لملكته القاصة ولغدا فى ميدان القصة وهو قمة من (١) القمم » .

ومع هذا الاستخفاف والاستهانة بشأن القصة من جانب المازنى فإنه كان فى الطليعة من كتابنا القصصيين الذين تركوا تراثًا قصصيًّا خالداً .

غير أنى أستطيع القول مطمئنًا أن المازنى قد حاول أن يحاكى الكتاب الواقعيين فى قصصه ، فقدم لقراء العربية صوراً حية من واقع الحياة الشرقية تنبض بالروح وتفيض بالحيوية ؛ ولم يكن يعنى كثيراً بحبكة القصة وقواعدها الفنية قدر عنايته بأشخاص الرواية وتحليل نفسياتهم وعرض واقع حياتهم وطرق تفكيرهم .

وإنك لتجد من ذلك الكثير فى قصتيه الخالدتين (إبراهيم

---

(١) العدد ٨٤٢ من الرسالة .

(٢ - موكب الخالدين)

الكاتب) و (إبراهيم الثانى) وفى غيرهما من كتب المازنى ومقالاته التى كان يصوغها فى معظم الأحيان فى قالب قصة فكهة ساخرة .

فلسفة المازنى

(يزحف الليل فأبرز إلى الصحراء فيلفنى الظلام فى شملته وتلطمنى الريح وتدفعنى وترد من خطاى ، كأنما تريد لتصدنى عن هولها ، وأعود كبعض ذراتها لا تراها العين ولا يحسها ولا يحفل بها كون ، فليت من تخدعهم الحياة وتنسيهم ضآلة أقدارهم يخرجون ليلة إلى الصحراء) .

هذا كلام جميل ورأى مصيب لشاعر مس قلبه اليأس فاحتقر الحياة ، وما كان هذا القول الذى صدر عن المازنى ليمثل رأيه الحق فى الحياة ولا نظرته الفعلية لها ، لأن المازنى كان حريصاً على الحياة حرص الشحيح على الدينار ، فهو يقول (نعم من الأكاذيب ومغالطة النفس أن يدعى أحد الزهد فى الحياة والشوق إلى الرحيل ، وأن يتظاهر بالارتياح إلى ذكره بعد ذهابه . حتى التيقن من خلود الذكر ليس فيه سلوان [1]) .

بل إن المازنى كان يرى أن الإنسان هو محور الحياة وأنه لاهم للإنسان فى الوجود إلا الإنسان ، وقد بلغ فى ذلك منتهى الأنانية ، إذ يقول (وإن الإنسان لا يزال يتلمس الإنسان ويحاول أن يجتليه فى كل شىء كأنما هو يستوحش الشىء إذا أحس أنه منه خلاء ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان الإنسان إنساناً ولا كان على الدنيا طلاوة ولا للحياة رونق وحلاوة . ولعمرى هل تروقنا الأرض إلا لأنها مسكننا ومثوانا ومراحنا ومغدانا ؟ وهل يملأ الروض عين من نظر إلا إذا أحس أن رياحينه تحييه وحمامه يغنيه ويلهيه وغصونه توسوس إليه وأنه متصل بحاضره وماضيه وبذكرياته وأمانيه ؟ ولعمرى كيف الحياة ؟ وماذا العيش إذا أنت حرمتنا هذا

---

(١) حصاد الهشيم : ص ٢٨٧ .

الإحساس الحلو والأنانية اللذيذة وسلبتنا هذا الخلق الإنساني والغريزة التاريخية ، وذلك أصل الدين وأصل الشعر وأصل العلم [١] ؟؟) .

وهكذا ينتهي المازني إلى أن الأنانية هي أصل كل الفضائل الإنسانية ، وهو يعتذر على كل حال عن هذه الآراء بأن مقتضيات العيش وطبيعة الحياة تؤدي إلى ذلك ، ولا سبيل إلى الخروج على سنة الوجود ؛ ويضرب لنا مثلا من أنفسنا فيقول : (من الذي يحب الواجب لذاته ؟ أين هذا الفنان الذي يزاول (الواجب) ويتوخاه إرضاء لعاطفته الفنية ؟ لست أنا به على كل حال ، وما أظن بالقارىء إلا أنه مثلي ؛ وإذا كنا من الأوساط فسبيلنا أن يدفعنا الإحساس بالواجب إلى مباشرة أعمالنا والقيام بما هو مفروض علينا وإلى مجانبة المغريات التي نلاقيها في طريقنا ومقاومة المفاتن ، ونحن إذ نفعل ذلك نعترف بالحاجة التي تحمل على النهوض بعبء الواجب ، وبالضرورة التي تحتم الإذعان لأمره ، ولكنا لا نحس (الحب) لهذا الواجب ، وإنما نحس ثقله من الفاتحة إلى الخاتمة . وقد لا نقاوم أو نناهض – بعنف – غير أنا على هذا نود لو أن الأمر لم يكن كذلك والحال لم تكن تقتضي ذلك » .

وهكذا يسخر المازني من الفلسفة النظرية ، وينتهي إلى القول بأن الفلسفة والمثل العليا جميلة في حد ذاتها لكن الواقع المادي أجمل منها فيحسن الاستسلام له وعدم التعب في تقليب كتب الفلسفة . (ويقلب كتب الفلسفة الحديثة فإذا هي تعالج أن ترد إليه القدرة على الإيمان بالواجب وتقول له إن الواجب يمكن أن يحبه كل امرىء .. ولماذا ياترى ؟ قالوا لأنه مرتبط بالحياة العالية أو هما شيء واحد ، فأما من خبروا هذه الحياة العالية وعرفوها فيفضلونها لا محالة على الحياة الواطية ! نعم إن

(١) حصاد الهشيم : ص ٣٠٧ .

(الواجب) يتصارع مع المتع واللذاذات التى هى أحط ، ولكن هذا الصراع يفتر فى النهاية ويتطابق الواجب والرغبة) [1] .

وقد تطابق الواجب والرغبة عند المازنى واستجاب للجماهير ونزل بكتابته إليهم لكن بعد أن ازداد سوء ظنه بالناس والحياة ، فتراه يتساءل بعد ذلك : « وما معنى (يوتوبيا) وأين هى ؟ فنقول معناها (لا وجود له) وكذلك الكمال فى الدنيا لا سبيل إليه .. » وهذا قول هين لين ، لكن المازنى عريق فى سوء ظنه بالناس بل هو ساخط ناقم عليهم وعلى الحياة أبداً ، فهو فى حرب معهم جميعاً كما يتخيل ، والدنيا فى رأيه بنيت على الظلم فليكن هو ظالمًا أيضاً .. (لو كان فى هذه الدنيا موازين لا تغل شعيرة تزن أقدار الناس والأمم وتقسم الحقوق بالعدل والقسطاس لما عادت بنا حاجة إلى النصح بالمغامرة وإطراح الحياء والخجل ونفض غبار القناعة والخمول ، ولكن ما تستحقه رهن بتقديرك وحدك دون سواك ، فمن أفحش الحمق أن تدع أمرك موكولا إلى خصمك ، نقول خصمك لأن كل الناس وكل الأمم خصوم على الحقيقة – وما من أحد إلا وفوزك بشىء أو سبقك إليه ، يحرمه إياه ، فهو مضطر إلى مغالطتك فيه وصرفك عنه ومغالبتك بالقوة عليه إذا لم تجد معك [2] الحيلة) .

ويخيل إلى أن هذا التشاؤم وسوء الظن قد خالطا روح المازنى ومشاعره وأصبح اليأس من الحياة ومن الناس إحدى الطباع المتأصلة فى نفسه والعواطف المنبعثة عن وجدانه حتى إنه ترجم عن هذه العاطفة شعراً بلغ منتهى القوة مع ندرة الجيد من شعره فقال :

أكلما عشت يومًا أحسست أنى متّه
وكلما شمت خلاّ وجدت أنى فقدته
ثوب الحياة بغيض ياليتنى ما لبسته

---

(١) حصاد الهشيم : ص ٢٥٥ . (٢) حصاد الهشيم : ص ٢٧ .

إن هذه الأبيات البليغة التى تقطر أسى ومرارة تصور إلى أى حد أوغل المازنى فى التشاؤم ، وإنى لموقن أن المازنى فى رأيه هذا قد تأثر إلى حد كبير بأبى العلاء المعرى حتى حاكاه فى الكثير من أقواله ، فهو يقول : « الموت على الأقل راحة فليت الحادى يعجل بنا ؛ فقد سئمت الحياة ومللت النظر فى وجهها الملطخ وثوبها المرقع ، واشتقت إلى أن أرقد هنا . . . » .

إن هذه الكلمات لتذكرنى ببيت أبى العلاء :

رقدة الموت ضجعة يستريح الـ

ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

لكن المازنى يرجع تشاؤمه إلى أنه « أشربت نفسه حكمة الكتاب المقدس التى تجنح إلى التشاؤم والإعراض عن الحياة بل احتقارها ، حتى أصبح يرى الكثير مما تتعلق به باطلًا وقبض ريح ،ويسخر من جهد حياته فيحسبه حصاد هشيم » .

أو لعل الأمر يرجع إلى كثرة ما فكر المازنى فى الحياة وقاسى من مرارتها ، ولقد مرت عليه هزات نفسية عنيفة . . هزات جرحت قلبه ، وأثارت مكامن الأسى فيه ، وصرفته إلى نوع من الكآبة المشوبة بالسخرية ، وراح وحده يحس الغصة فى حلقه والمرارة فى نفسه . . . يقاسى ألمه النفسى ويعيش فى صراع عنيف مع آلامه ومع الحياة ومع أفكاره ، فأسلمه ذلك إلى التشاؤم الذى صاحبه ، والذى حاول كثيراً أن يفلت منه ويتنكب عنه ولكنه لم يستطع . . . فخيالات الماضى دائمًا تلاحقه ، وذكريات الأيام دائمًا تنكأ جراح قلبه ، والحياة تسير به إلى الشاطىء الآخر لا تحفل بحزنه إذا حزن ولا بتشاؤمه حين يتشاءم ، ولا بما يصطرع فى نفسه من صنوف المشاعر وضروب الأحاسيس . . . وعندما يدركه الفتور ويرجع إلى نفسه [1] ويرى تشاؤمه وحزنه يعلل

(١) من مقال غائب طعمة فرمان بالثقافة عدد ٥٥٧ .

نفسه ويقول : « ولكنك عبد الحياة .. عبدها الشاكى بغنائه الذى لا يعجب الأحرار الطلقاء . وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك .. لا بأس ، أرسل صوتك ليؤدى الصدى مقطعًا .. نعم وغنّ وتسل كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف ، واحلم – على الرغم من الأرق والأسى – بالخلود ... لا بأس غن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى (١) » .

وقد صاحب هذا التشاؤم عند المازنى أو كان من أسباب وجوده ، تلك النظرة المستخفة بما فى الحياة من حقائق كان يراها المازنى كالخيال لأن غايتها إلى أمل وذكرى وكلاهما خيال ..

بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك ، وأعتقد أن كل ما فى الوجود باطل سائر إلى فناء فقال : « ويثقل على نفسى خاطر واحد يكاد يصدنى عن المواظبة هو ما جدوى هذا كله ؟ ... ما آخر هذا العناء الذى أراه باطلاً ؟ .. آخر ذلك كله معروف وهل ثم من آخر سوى الفناء ؟ ولكنى أعود فأقول لنفسى بأن هذا الآخر لا آخر سواه ، سواء بذل المرء الجهد أم قعد عنه وضن به ، فلا فائدة من التقصير ولا ضير من السعى . والحياة أن تحيا لا أن تجمد وتركد وتأسن . أما الجدوى فلماذا أعذب نفسى بالسؤال عنها ، وما جدوى أى شىء فى الحياة ؟ .. إن كل ما أعرفه أنى موجود وأنى وهبت قدرة على الإحساس والتفكير .. فكيف أعطل هذه المواهب وأبطل عملها ؟ .

« وكيف يمكن أن أنعم بالوجود وأتمتع بالشعور به وأنا أعطل ما أعطيت ؟ .. ويعرف الجدوى من أعطانى ؛ فلندع له ذلك ، فهو أعرف به » (٢) .

---

(١) إبراهيم الكاتب : ص ١٨٨ .

(٢) « من النافذة » : ص ٩٥ .

وهكذا ينتهى المازنى فى فلسفته إلى نوع من الاكتفاء الذاتى على نحو ما يغرد الطير ويرف الشجر وتفوح الثمار وتفيض الينابيع عن الأحجار غير محتاجة إلى وحى خارجى ، أو إلى عون تستمده من غيرها أو إلى أمل فى خلود بعد الممات وذكرى .. فاستمع إليه يقول : « ولكن ، لا تسمح لى أن أسألك : ما وحى الأزاهر الذى يذكى أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفافة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى النبع فاضت به الأصلاد ؟ .. لا بأس غن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى » .

السخرية فى أدبه

يجرنا الحديث عن فلسفة المازنى إلى بحث علاقة هذه الفلسفة بما شاع فى كتاباته من سخرية ، وقد رأينا المازنى برغم تشاؤمه حريصًا على الحياة ، وكان يود لو استطاع السيطرة على الحياة بطريقة الاكتفاء الذاتى التى انتهى إليها بفلسفته « ولكم كانت تحلو الحياة عندئذ لرجل كالمازنى الذى ضاق ذرعًا بالحياة والأحياء حتى أصابه منهم اليأس وتفجر هذا اليأس سخرية وتنكرًا للحياة ومن فى الحياة وما فى الحياة [1] » .

« وعلى الرغم من هذا التعلق بالحياة والنزوع إلى الاكتفاء بالذات لم يفلت المازنى من أن يحس بهبوط هذه الحياة هبوطًا ذاتيًا أيضًا عندما تتقدم بنا السنون وتجفف من عصير قلوبنا فقال : (متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له فى عمره ، وأن ما تبقى من رحلته فى هذه الدنيا أشبه بأن يكون وجودًا منه بأن يكون حياة — استمرار ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه — عرف المرء أن أذنه التى كانت تثملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح يخفق بلا

---

(١) من بحث الدكتور محمد مندور فى بلاغ ١٩ / ٨ / ١٩٤٩ .

احتفال ، ولا يخرج من دقه عن الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها .. وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وها هنا) » .

فى هذه الفقرات يبلغ المازنى من التشاؤم حدًّا لا يمكن تجاوزه ، وذلك لأنه تشاؤم من صميم الحياة ذاتها ، فلم تمله ظروف خارجية ولا أوضاع اجتماعية ولا دخل للغير فيه ، وإنما هى الحياة ذاتها تخبو بين أيدينا ونحن عاجزون عن أن نعود فنشعل ثقابها .. أو هى الحياة يرى المازنى أنها صائرة إلى عدم بعد أن طوحت بآماله وملأت عمره آلامًا وأحزانًا ، فمن عسر فى المبدأ إلى حب خائب منى به إلى فواجع متوالية أبرزها موت زوجه .

كل هذه العناصر تجتمع فتكون فلسفة المازنى التى اتخذ السخرية سبيلاً للتعبير عنها ، وهى كما ترى عناصر بعضها مستمد من بيئة المازنى وهى بيئة مصرية ، وبعضها مستمد من طبيعة الحياة فى ذاتها ، وبعضها مما تأثر به فى مطالعاته .

لقد انتهى المازنى إلى السخرية من الحياة ومن فى الحياة وما فى الحياة [١] ولم يعد يؤمن بشىء فيها ، وامتدت تلك السخرية حتى شملت عصارة نفسه وجهد حياته ، فلم ير فيما يكتب غير حصاد هشيم وقبض ريح وملهاة أطفال .

لقد كان المازنى يبدو متواضعًا فى حياته ، لكنه فى الواقع كان يلبس ثوبًا مهلهلاً من التواضع يحاول أن يخفى وراءه كبرياءه وترفعه على الناس أو احتقاره الشامل للحياة وما فيها ومن فيها .

---

(١) من بحث للدكتور محمد مندور فى بلاغ ١٩ / ٨ / ١٩٤٩ .

كان تواضعًا ينطق بإيمان صاحبه بنفسه وبسموه على معدن الأحياء حوله حتى ليقول : « إن اللآلىء لا تذوب فى الأوحال » وليس بعد هذا كبرياء بل قوة وشراسة .

ولذا كانت سخرية المازنى تعبر عن ألم دفين وتنفس عن مرارة مكبوتة فى نفسه ... إن هذا الذى يقول لقارئه : « أقسم إنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجًّا ، وثمرة اطلاعى وهو واسع ، ومجهود أعصابى وهى سقيمة بأبخس الأثمان ... الخ ، واعلم أنه لا يعنينى رأيك فيه — الكتاب —ولا يسوءنى أن تبسط لسانك فيه ، إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخذه منك ، وما أخلقنى بأن أضحك من العائبين ، وأن أخرج لهم لسانى إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كان تحت أنوفهم ... إنى مستغن عن رضى النقاد والمتحذلقين عن كتابى هذا ، وقانع باستحسان أمثالى من الأوساط المتواضعين ، وهم بحمد الله كثيرون فى هذا البلد الأمى ، بل أكثر مما يلزم لى » ... إن هذا الشخص الذى يقول هذا القول إنما يفصح عما يعتمل فى نفسه من ثورة ومن آلام معركته اليائسة مع الحياة والأحياء ، ولذلك هو يسعى إلى الانتقام منهم بهذه السخرية اللاذعة المريرة .

إن السخرية — وقد كان المازنى بارعًا فى استخدام سلاحها — وهو سلاح أمضى [1] فى يد الكاتب من كل الصرخات العاطفية ، لأن البكاء والولولة والنحيب أسلحة مثلومة إلى جوارها تنفر القارىء بما تعرض من ضعف وبما تقحمه من مشاعر خاصة شخصية على مشاعر الناس .

بينما السخرية — وهى قلب للأوضاع وتحايل على المشاعر وتعبير بالإيحاء — تخفف من ثقل العاطفة الشخصية ، ويستطيع الكاتب بفضلها أن يلج رحاب النفس ، ويبلغ مأربه من قلب القارىء فى غير عناء ...

---

(١) بحث الدكتور محمد مندور فى البلاغ .

وهى بذلك تفضل الأسلوب التقريرى العقلى أيضاً لانتفاء دعوى القدرة والسيطرة على عالم الفكر منها .

لكن المازنى فى أيامه الأخيرة نحا نحواً جديداً من السخرية لا يغاير ما اعتدناه من سخريته كل المغايرة ، إنما يختلف عنه فى ناحية واحدة أو فى عاطفة جديدة لم تكن منعدمة فى كتاباته السابقة ، إنما كانت فى كتاباته الأخيرة أميل إلى الظهور وأوضح للقارىء ... تلك العاطفة هى عاطفة الرثاء للناس والإشفاق عليهم والحدب على آلامهم ؛ وراح لذلك يثبت للناس آراء جديدة فى السخرية الأدبية بناها على أساس هذه العاطفة الغلابة « وأنا فى العادة أوثر الاحتشام أمام الناس ، ولكنى حين أكون بين إخوانى وخلصائى أطلق لنفسى العنان ولا أبالى ما أقول أو أفعل ما دمت أريد أن أقوله أو أفعله ، ولو وسعنى أن أملأ الدنيا سروراً واغتباطاً لفعلت فإنى عظيم الرثاء للخلق ، وأحسب أن هذا تعليل ميلى للفكاهة ، فإنى أتسلى بها وأنشد أن أدخل السرور على قلوب الناس ، لاعتقادى أن عند كلاً منهم ما يكفيه من دواعى الأسى ، وما دام فى الوسع أن نعرض عليهم الناحية المشرقة الضاحكة فلماذا نغمهم ونحزنهم ... ثم إن للفكاهة مزية أخرى هى أنها من أقوى ما أعان على احتمال الحياة ومعاناة تكاليفها والنهوض بأعبائها الثقال ؛ فهى ليست هزلاً ولا تسلية فارغة ، وإنما هى تربية للنفس . والرجل الذى يلقى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم – لا الأبله الغافل – خير وأصلح ألف مرة من الذى لا يزال يدير عينيه فى جوانبها الحالكة ويندب ويبكى ويعول ، ولو نفع السخط والغضب والبكاء لقلنا حسن ؛ فلماذا لا ننظر إلى الجانب الوضاء .. أو لماذا نعمى عنه وهو موجود ، أى لماذا نفقد القدرة على الاحتفاظ بالاتزان أو صحة الوزن (١) للأمور ؟ » .

---

(١) أخبار اليوم عدد ١٧ / ٩ / ١٩٤٩ .

وفى حديث آخر للمازنى قبل وفاته بأيام قلائل ، وقد رفض رئيس تحرير المجلة أن يقبل منه رثاء للمازنى بقلم المازنى يقول له : « كنت أريد أن أضع مثالاً جديداً فى الرثاء ؛ فإن مديح الموتى أصبح عادة مملة ، والبكاء على الأموات فى الصحف يذكرنى بما يقوله الندّابات فى المآتم .. أريد أن نتعود تسجيل أخطاء الموتى ونوادرهم .. أريد أن يبتسم الناس عندما يسمعون نبأ موتى .. إن حياتى كانت سلسلة من المآسى ، لكنى يوم أموت أريد أن أسجل ابتسامة على شفاه قرائى .. إن الدموع تجف سريعًا ! ولكن الضحكة تعيش طويلاً » ! .

هذه سخرية المازنى ، وهى سخرية ترفعه إلى مصاف كبار الكتاب العالميين ، لأنها صادرة عن فلسفة فيلسوف بصير بحقائق الحياة قدير لى بلوغ أهدافه من نفوس قارئيه .

ولا يسعنى أن أختم هذا البحث قبل أن أشير إلى ميزة أخرى من ميزات المازنى ، وهى ولعه فى حياته الخاصة « بالمعاكسة البريئة » والدعابة اللطيفة ؛ ويروى لنا صديقه الأستاذ عباس العقاد هذه القصة عن الفقيد :

كنا نقضى السهرة ذات ليلة فى ناد كبير من أندية الموسيقى والغناء وطالت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، وكان رحمه الله يبيت يومئذ بمنزل على مقربة من الإمام الليث ، ولم يكن خط الترام قد وصل إلى الإمام ، وقد كان الترام الذى يذهب إلى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال ... وودعته وهو يتفق مع حوذى ليوصله فى مركبته – مركبة خيل – لأن السيارة لم تكن شائعة فى تلك الأيام .

وكان الجو ليلتها رائقًا والقمراء فى أوانها وسكون الهزيع الثانى من الليل يغرى بالغناء ، ويظهر أن الحوذى حين رآنا نخرج من النادى الغنائى – قد بدا له أننا من هواة السمع فلا حرج عليه إذا طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من الطقاطيق التى يهواها ، ولم ينس أن يعتذر إلى

(زبونه) بعد أن رفع عقيرته بالغناء - (لا مؤاخذة يا سيدنا البيه ٠٠ إن محسوبك من هواة السمع وإنه ٠٠) ٠

وقبل أن يمعن فى الاعتذار بادره (الزبون) قائلا : - خذ راحتك ٠٠ « أنا والله أحب أسايرك » ٠

فلم يملك الحوذى نفسه من الطرب والارتياح لأن الجواب الذى سمعه جزء من « الطقطوقة » التى كان يغنيها ، وراح يغنى تارة ويردد قصته التى بدأ فيها تارة أخرى ، وخلاصتها أنه كان - لهوايته السماع - يختار موقفه إلى جانب « تخوت الآلاتية » ويسترق السمع بين لحظة وأخرى كلما استطاع الإفلات من رقابة البوليس ٠

وانجلى الحوذى وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ونسى البوليس والزبون ومضى كأنه فى ليلته يود أن لا تنقضى به الطريق ٠

وتدرك أخانا رحمه الله تلك الشنشنة التى لا تفارقه ، ويوحى إليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا « الفصل الغنائى » الذى أقحمه الحوذى عليه فأفسد عليه فى آخر الليل ما سمعه فى أوله ٠٠ إن المطرب المقتحم قضى ساعة وهو يقول فى الطقطوقة التى يغنيها « لما أشوف آخرتها معاك ٠٠ » فماذا لو كانت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون ٠

خطر الخاطر فلحق به التنفيذ وخلت المركبة ،والمطرب المشغول بغنائه لا يدرى ، لأن خلو المركبة وامتلاءها بذلك الحمل الذى كان فيها يستويان (١) ٠

والتفت الحوذى بعد أن طالت الرحلة ، ولم يستمع من الزبون صوتًا ولا أمرًا بالوقوف ٠٠ فطار ما فى دماغه من الغناء وامتلأ بكل ما وعاه فى حياته من البذاء ٠٠٠ ولا حاجة بالقارىء إلى ترديد ما ألقاه من لسانه فى

(١) كان المازنى قصير القامة ناحل الجسم ٠

ذلك الخلاء ، وليس من حوله أحد يجيبه أو يستدل به ، وغريمه الباحث عنه كان دليله الوحيد .

ويزورنى الصديق فى اليوم التالى فيسألنى : « أتذكر شكل الحوذى الذى كنت معه بالأمس ؟؟ قلت : لا أظن أننى أحقق شبهه ، فلماذا تسأل عنه ! هل فقدت شيئًا عنده ؟

قال ضاحكا : كلا ، ولكنه هو الذى فقد ؟

فلم أفهم شيئًا وسألته : وماذا فقد ؟ قال : فقدنى أنا .. وقص علىَّ تفصيل تلك القصة التى أجملتهَا هنا بعض الإجمال .

انقضى إربه من المعاكسة وجاء دور الرحمة بذلك المسكين ، فإذا هو مهموم بالبحث عنه لإعطائه أجره الذى خيل إليه أنه ضاع بغير أمل ، فقلت له إن حوذيًّا بهذه الصفة لابد أن يكون معروفًا بين زملائه فى موقفه وغير موقفه ، فهلم إلى الموقف نبحث عنه هناك .

ولم يخطىء ظننا فى جدوى البحث هناك ، لأن القصة كانت حديث زملائه وإن لم يكن هو بالموقف تلك اللحظة ، فأخبرناهم أين يجدنا إذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبل الرجل يهرول وهو لا يصدق أن زملاءه قد صدقوه الخبر ، فلما رأى صاحبه بالأمس أقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف الأجر الذى كان يطمع فيه وانصرف وهو يدعو له ويقسم « لا عدت إلى الغناء أبداً وأنا مركب » وإلا « فعلى روحى أنا الجانى » فقال له الصديق العزيز« بل تغنى ما شئت ولكن تعطى وجهك للسمِّيع » .

وكان المازنى رحمه الله ينقل الكثير إلى قرائه من هذه الدعابات البريئة والنوادر المستملحة فى أسلوبه الساخر الذى يكشف عما يكمن وراءها من معان إنسانية .

مقارنة

لا يمكننا التحدث عن المازنى دون أن نقيم هذه المقارنة بين المازنى

والمازنى أو بين المازنى ونفسه ... المازني فى العشرة الثانية والثالثة وبعض الرابعة من القرن الحالى ، والمازنى فيما بعد حتى عام ١٩٤٩ .

لقد كان المازنى فى أول عهده بالأدب والصحافة أديبًا يعنى بمشكلات الحياة ويتعمق فى نظرته إليها ولا يكتفى بالقشور من الأمور ولا بالنظرة السطحية ، بل يحقق ويدقق ويتفلسف فيما يكتب ، وكان كما أسلفنا أستاذًا يعلم جيلا ويتزعم مدرسة من الأدباء والقراء ممن يتذوقون الأدب الحق ، وكان يوجه النشء الوجهة الصحيحة فى الحياة .

فهو فى كتاباته يعالج التراجم ويفرد كتابًا لابن الرومى وينصب نفسه للدفاع عنه وعن مذهبه فى الشعر ، وتراه فى حصاد الهشيم يحدثك عن المتنبى وعمر الخيام وماكس نورداو وشكسبير ، ومقاييس الفن والجمال والتصوف فى الأدب والشعر الوصفى والتصوير والطبيعة والخلود ، وكل وعر شائك من الموضوعات ، غير هياب ولا وجل ، ويبدى رأيه فى جرأة وصراحة ، ويتقبل نتائج كتاباته فى اطمئنان الواثق بنفسه المعتد برأيه .

لكنه فى الأعوام الأخيرة من حياته ترخص فى كتاباته ومال إلى إرضاء الجماهير ، فطرق المواضيع السهلة وكتب فى التافه من الأمور وكتب كثيرًا وأجاد قليلا حتى قال مخاطبًا صديقًا له من النقاد : « ستقول إن المازنى كان بالأمس خيرًا منه اليوم وإنه ترك زمرة الأدباء وانضم إلى زمرة الصحفيين ، وإنه يكتب فى كل مكان ويكتب فى كل شيء حتى أصبح تاجر مقالات تهمه ملاحقة السوق أكثر مما تهمه جودة البضاعة ، أليس كذلك ؟ ... ولكن لا تنس أن الأديب فى بلدكم مجبر على أن يسلك هذا السبيل ليكسب عيشه وعيش أولاده وليستطيع أن يحيا حياة كريمة تشعره بأنه إنسان [1] .. » .

وحقًّا كان المازنى صاحب عيال ورب أسرة ، عليه أن يدبر أمرها

(١) العدد ٨٤٢ من الرسالة .

ويحفظ لها عيشًا كريمًا . وقد أيده الدكتور أحمد بك أمين فيما ذهب إليه فقال : « لذلك كان المازنى مضطرًا دائمًا أن يكـــتب ليعيش وتعيش أسرته .. يعانى المرض ويعانى الألم ويحس الحاجة القصوى إلى الراحة ، ولكن أنى [1] له الراحة والعيشة لا ترحم والحكومة لا ترحم والأغنياء لا يرحمون ؛ وتتدفق الأموال على الراقصة الخليعة والمغنى المهرج ويعيش الأديب عيشة سوداء كحبر قلمه ومن مجرى ضيق كشق قلمه » .

وهكذا كان المازنى مضطرًا لأن يستجيب لرغبات الجماهير ويترك فنه الأصيل إلى ميدان آخر ...

أو هكذا تعود بنا هذه المقارنة إلى علة العلل الكامنة وراء فلسفة المازنى الساخرة وتشاؤمه المرير .. ألا وهى الصراع العنيف الدائم ، والمعركة التى استمرت العمر كله بينه وبين الحياة ، حتى إنه اضطر ذات يوم إلى بيع مكتبته ليدفع عن نفسه الحاجة ، ومكتبة الأديب لو تعلمون أعز ما عنده فى الوجود .

أعماله

إنه أمر مؤسف حقًّا ، ألا تهيَّأ الأسباب لأديب فذ كالمازنى حتى يتفرغ لأداء رسالته بدلًا من استغلال مواهبه فى هذا العمل الصحفى العاجل الفانى الذى يستجيب لوحى الساعة وضرورات المناسبة .

ولو تيسرت موارد العيش للمازنى واستطاع أن يتفرغ للتأليف الذى يريده لأمتع الناس بالعجب العجاب فى هذا الباب ، ولظفر العالم العربى بثروة المازنى كلها ، وما أنفسها وأجلها ! .

ومما كتب المازنى : إبراهيم الكاتب ، إبراهيم الثانى ، قبض الريح ، الديوان ، رحلة الحجاز ، صندوق الدنيا ، فى الطريق ، خيوط العنكبوت ،

---

(١) العدد ٥٥٥ من الثقافة .

بشار بن برد ، ع الماشى ، مختارات من القصص الانجليزى ، عود على بدء ، السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ، أقاصيص ، ثلاثة رجال وامرأة ، من النافذة .

وغير ذلك كثير . فما أحرانا بعد أن أضعنا من هذا الكنز ما ضيعنا - وهو بيننا - أن نتعلم كيف نصون ما أبقاه لنا ، وأن نجمع ما لم يطبع من كتابات المازنى ، وأن ننشره ضناً به على الضياع وحرصاً على تراث من آدابنا العربية من الفناء .

* * *

الخليـــل

رب القريض وسـيد القلم وفيت قسطك للعلى فنم (١)

هذا الشاعر الذى ملك زمام الشعر وناصية اللغة وقاد ثورة فى عالم الشعر ، كان من أكبر الناس قلباً وأنبلهم نفساً وأكرمهم شمائل ، وكانت حياته دعوة للسلم متصلة ونداء للمحبة والإخاء بين الناس ، وأنشودة عذبة من أناشيد الحب لبنى الإنسان ، وليس هذا بمستنكر ممن نشأ نشأة الخليل .

فلقد ولد خليل مطران فى مدينة بعلبك بلبنان عام ١٨٧١ م ، على أرجح الأقوال ، من أسرة عريقة ، وتلقى علومه فى المدرسة البطريركية ببيروت وعن العلامة إبراهيم اليازجى حجة اللغة والأدب فى عصره ، وقد قضى فى لبنان صدر شبابه ، ثم هجره إلى باريس حيث نهل من منابع الآداب الغربية وعلومها ما ظهرت آثاره فى أشعاره وكتاباته .

وفى باريس اشترك فى بعض الحركات الوطنية التى رمت إلى تحرير الوطن العربى ، ثم عاد إلى مصر التى اتخذها موطناً له .

وفى مصر ساهم فى تحرير الأهرام واللواء والمؤيد ، وظهر نبوغه فى تحرير المجلة المصرية والجوائب ، وقد عين مراسلاً للأهرام فى القاهرة عندما كانت تصدر فى الاسكندرية ؛ وبعد انتقالها إلى القاهرة طلب منه أن يتولى رياسة تحريرها فاعتذر عن قبول هذا المنصب وتحول إلى الحياة العاملة ، وكانت له أوجه نشاط فى ميادين الاقتصاد فربح كثيراً وخسر كثيراً ، إلى أن انتهى به المطاف إلى العمل سكرتيراً للجمعية الزراعية ، وقد ظل يقوم بأعباء هذا المنصب إلى أواخر أيامه .

---

(١) من رثاء الخليل لليازجى .

وفى عام ١٩٣٥ تولى إدارة الفرقة القومية المصرية للتمثيل العربى ، وبقى فى إدارتها سبعة أعوام تقريباً .

وقد ألحت عليه العلة فى أيامه الأخيرة حتى عاقته عن النهوض بأى عمل ، وحتى رغبت إليه الموت فقال مخاطباً تمثالاً له :

مـــثالى إننـــى أرنو إليـــك وإن بـــى رفقًا
دنا أجـــلى فيا جذلى ولكـــن أنت قد تبقى
أخاف عليك أن تحيا ومن يحيا ولا يشقى ؟

وقد ودع الخليل شقاء الدنيا هذا فى مساء الخميس ثلاثين من يونيه عام ١٩٤٩ .

العوامل المؤثرة فى شعره

لقد أطال الله فى عمر الخليل سبعًا وسبعين عامًا استطاع أن يشهد خلالها أحداثًا جسامًا فى الشرق العربى ، وأن يتأثر ويؤثر فيما طرأ على الآداب العربية من تطورات بعيدة المدى عميقة الأثر .

وتعاقبت على هذا الشرق فى حـياته ثورات سياسية وحـروب مختلفة .

فمن الثورة العرابية فى مصر ، إلى حرب البوير ، وحرب الجبل الأسود إلى الحرب العظمى الأولى ، ثم الحرب العالمية الثانية .

وكنا دائمًا نشهد انعكاس آثار هذه الأحداث فى شعره ونفسه ... نفسه الأبية التى تبغض الظلم والظالمين وتكره البغى والباغين ؛ فاستمعوا إلى هذه الصرخة المدوية يرسلها عند شبوب حرب البوير :

ولنبـك من ماتوا وما منهم جبـــان منهزم
ولنرث للضعفاء يفـ ـــنيهم قوى مغتشم
خطب رآه المنصـــفو ن كأن أحياهم صنم

رأوا الذئاب فحاولوا — أن يدرأوها بالحكم
أين القضاء إليه أر — باب الممالك تختصم ؟
أين الحقيقة أين إنـ — ـصاف البرىء إذا ظلم ؟
من للضعيف إذا شكا — وعلى القوى إذا أثم

وفى قصيدة أخرى يقول وقد هاله ما لحق القوم من أذى وظلم مبين ، وهم عزل إلا من أسلحة بدائية قديمة يحاربون بها قوماً مدججين بالمدافع والأسلحة الحديثة :

شيدوا تاريخكم من نقض ما — شاده فى أزل الدهر الطغاة
ثابروا فى وثبكم ولتهننا — فى تلاشينا الهنات الهينات
تابعوا النصر بنصر ولتكن — خجلة الأنذال هذى النصرات
يصفع الجبار من تعدمه — منكم للضرب والطعن أداة

ويصحب هذا الاضطراب فى الأوضاع السياسية وانتشار الظلم والعدوان ضعف فى الأخلاق وإسفاف بين الناس يصوره لنا مطران فى هذه الأبيات البليغة :

رأيت حروبا أوقد الظلم نارها — فمادت لها الآفاق واهتزت الربى
جرت مهج الأبطال فيها زكية — كأن الثرى بالأرجوان تجلببا
إذا الشمس جرّت فوقه ثوب نورها — طوته وراح الثوب بالدم مشربا
رأيت أساطين السياسة حلقوا — فخلت لهم عند المجرة مطلبا
ولكن أسفّوا بعد حين كأنهم — نسور هوت تبغى من الدم مشربا

ولا شك فى أنه كان لظروف المجتمع التى أحاطت بمطران أثر بالغ فى شعره ، بل لقد أفسد هذا المجتمع بعض شعره . . .

لقد كان مطران أبى النفس حر الطباع نزاعا إلى التحرر من القيود لا

سيما قيود الظلم ؛ ولذا نراه يدافع عن حرية الرأى ويحمل على قانون المطبوعات فى مصر ؛ وكان من أثر هذا الدفاع أن هدده رئيس وزارة ذلك الزمان بالنفى ، فأجابه بقصيدة عنوانها « تهديد بالنفى » :

أنا لا أخاف ولا أرجى   فرسى مؤهبة وسرجى
فإذا نـــبا بـــى متن برّ   فالمطـــــية بـــطن لجّ
لا قول غير الحـــق لى   قولٌ وهذا النهج نهجى
الوعـــد والإيـــعاد ما   كانا لدى طـــريق فلج

ومن دلائل روحه الجريئة المقدام شغفه فى صباه بركوب الخيل والسبق على متونها حتى وقع من فوق أحد الجياد ذات مرة فتكسرت أضلاعه وتهشمت أرنبة أنفه .

وهذه الجرأة نلمحها فى تركه الصحافة إلى الزراعة والتجارة والمضاربات وعدم استقراره على حال واحدة فى حياته . لكن ظروف البيئة المحيطة كانت تكبح هذه الجرأة .. لقد رأى الأحرار تنقل أشلاؤهم بالحديد وتطرح فى أعماق البسفور ، ورأى قلم المراقبة التركية ينهال على الصحف فتقفر حقولها وتغل أعناقها ، فنرى الخليل بعد ذلك يؤثر التلميح فى قصائده الوطنية كقصيدة (شيخ أثينهَ) وهى دعوة حارة لمقاومة الاستعمار الغاشم ، وفى قصيدة (مقتل بزر جمهر) يرمى إلى تصوير ظلم السلطان عبد الحميد الذى كان يسوق أحرار العرب إلى القتل ، غير مراع فيهم إلاً ولا ذمة ، وهو يستحث القوم ليثوروا على الظلم بالموجع من القول مستترًا وراء بزرجمهر :

فلأنت كسـرى ما ترى تحريمه   كان الحـــــرام وما تحل حلالاً
وليذكرنَّ الدهر عـدلك باهرًا   ولتحمـــــــدنّ خلائقًا وفعالاً
لو كان فى تلك النعاج مقاوم   لك لم تجىء ماجئته استفحالا

وهل كان يعقل أن يعيش المرء جوابًا فى الآفاق كلما نبا به بر طوى خيمته وارتحل ؟ ولو قدر الرجل فى شبابه على الهجرة والترحال فهل تستطيع الشيخوخة أن تعينه على مجاراة عواطفه ؟ .

وإذا كان هذا من غير المعقول فكان إذًا على مطران أن يكبح جماح عواطفه وأن يكبت ثورته أو يخفف من غلوائها ، وأن يكيف نفسه وفق ظروف الجماعة التى يعيش فيها والتى شاع فيها الضعف والاستسلام ؛ ولذا نرى التعقل يسود حياته بعد ذلك ويلون الكثير من شعره ، فيزخر هذا الشعر بألوان من المديح والرثاء والتهانى فى حفلات الزفاف مجاملة للناس فى أفراحهم وأتراحهم حتى آخر أيام حياته ، وفى وقت اشتداد العلة عليه كان يلح فى طلب الصحف ليطالع الوفيات وأخبار المجتمع لمجاملة الناس .

وأعتقد أن أثر البيئة لم يقف عند هذا الحد ، بل دفع بمطران إلى التماس العزلة والابتعاد عن الناس ، حتى يأمن أذاهم بعد أن خالط نفسه شعور باليأس من صلاحهم أو صلاح دنياهم :

وكم فى فؤادى من جراح ثخينةٍ   يحجّبها بردای عن أعين الناس
إلى عين شمس قد لجأت وحاجتى   طلاقة جو لم يدنس بأرجاس
أسرّى هـمومى بانفرادى آمنًا   مكايد واش أو نمائم دساس
يخالون أنى فى متاع حيالها   وأى متاع فى جوار لديماس (١)

وهو شعور يردده فى شعره كثيراً ، فنراه فى قصيدة أخرى يقول :

متفرد بصبابتى متفردٌ   بكآبتى متفرد بعنائى
شاك إلى البحر اضطراب خواطرى   فيجيبنى برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لى   قلبًا كهذى الصخرة الصماء

(١) الحفير من الأرض .

وكان خليل مطران رقيق الشعور رقة مفرطة حساسًا إلى درجة بالغة ، مليء قلبه حبًّا للناس والكون المحيط به ؛ وقد انعكست هذه الرقة فى شعره حتى ليخيل إلىَّ عند ما أقرأ بعض أشعاره أن كاتبها روح صافية خالصة .

تأمله معى يخاطب عصفورة رآها فى چنيف قرب تمثال چان چاك روسو :

سيرى وولى صدرك الـ	ـمشتاق شطر المربع
حتى إذا ما جئته	وشرعت أعذب مشرع
عوجى ببستان هنا	لك فى العراء مضيّع
لى فى ثراه دفينة	كالكنز فى المستودع
تخفى الأزاهر قبرها	عن أعين المستطلع
قولى له إن جئته	يا أنس هذا البلقع
أتحس فى هذا الثرى	نبضات قلب موجع
هذا حنين من فؤا	د محبك المتفجع

وهو إلى جانب رقة الشعور يتحلى بتواضع جميل تنم عنه أشعاره الكثيرة كقوله :

كان فى الشعر لى مرام خطيرُ	فعدا طوقى المرام الخطير
هائم فى الوجود أسأله الوحـ	ـى كما يسأل الغنىَّ الفقير
أكبرونى ولست أكبر نفسى	أنا فى الفن مستفيد صغير
لا يضق صدر شاعر بأخيه	يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها	ليس تحصى شموسها والبدور

كل جرم يعلو ويصبح نجمًا ... فله حـــــــيز وفيه يدور
والنجوم التى تلوح وتخفى ... ربوات وما يضـــــيق الأثير

وهناك خاصة أخرى من خصائص مطران العظيم تدل على عمق شعوره بعظمته وسمو تفكيره وترفعه عن الحقد والحسد الذى يحسه أبناء الفن الواحد بعضهم لبعض .

إنه يحب كل شاعر ، ويأخذ بناصية كل أديب ناشىء يلجأ إليه ، ويعتقد أن هذا الأديب سيكون نجمًا له حيز فى فلك الفن الذى يغص بالنجوم والشموس ، وكل فنان له طابعه الخاص ومجاله الذى يبرز فيه ، ولذلك تراه لا يتأخر عن الاعتراف بالفضل لشوقى وتقريظ ديوانه تقريظًا شف عن نفس بلغت منتهى السمو الخلقى ... نفس فرحت فرحة قلبية خالصة بعمل شوقى :

ضمنت لهذا العهد ذكرًا مخـــلدًا ... وجددت للإســــلام معجز أحمدا
وبتّ لمصر بالمفاخر محـــــتدًا ... ومن قبلُ كانت للمــــفاخر محتدا
لك الله من شاك عن الناس دهرهم ... على حين لم يشكوا وقد جار واعتدى
ومن ساهر يفنى منار حيــــاته ... ضياءً ليهـــــدى غافلين ورقّدا
ومن ناظم للمـــــلك تاج فرائد ... من المدح تيجـــــان الملوك له فدى
ومن منشد يحيى فخـــار جدوده ... فيكســـــبهم مجداً بذاك مجددا
قواف يزين الشعر حســـن نظامها ... كما ازدان كأس بالحــــباب منضدا
وسبكٌ يعيد اللفظ لحنا موقـــعا ... ويبدى لنا المعــــنى الخفى مجسدًا
أسحرا ترينا أم صحـــــائف كلما ... نقلبها وجــــــها نرى عجبًا بدا
بيانك سيف الحق فى مصر قاطعًا ... ذليلاً به البـــاغى قتـــيلا به الردى
وذو العلم فليختر كتابك مؤنســا ... كريمًا وأســــتاذًا حكيمًا ومرشدًا

بقى هناك عامل آخر – مرجعه البيئة أيضًا – من العوامل التى أثرت فى شعر مطران وحياته ؛ هذا العامل الخطير هو قلة احتفال الناس فى عصره بالأدب والأدباء وندرة القراء فى العربية ، وهو عامل ما زال يشكو منه الأدب العربى ، وأعنى بالأدب : الأدب الخالص والإنتاج الفنى الصحيح لا الصحافة الرخيصة .

وقد اضطر مطران عندما ضاقت به سبل العيش عام ١٩١٤ ولم يسعفه أدبه بما يسد الرمق إلى افتتاح حانوت صغير لبيع الفحم حتى يدرأ عن نفسه غائلة الجوع .

ولا شك فى أن هذه حال لا تشجع الأديب على الإنتاج بل الأرجح أن تدفع به إلى اليأس دفعًا ، وقد عبر مطران عن شعوره فى إحدى مراثيه قائلا :

إربأ بنفسك أن تــــكون نجيبًا ... وازجر خليلك أن يكون أديبًا
فلقد أرى موت الأديب حياته ... والعيش موتًا يلتــــقيه ضروبًا
وأرى جوائز فضــــله وعلومه ... إعســــــاره والداء والتعذيبا
يا للذكاء ينيرنا بضـــــــيائه ... ويكون للجسم المضىء مذيبا
يا للعلوم نظنها نعمـــــا لنا ... فنصيبها نقمًا لنا وخـــــطوبا

* * *

مذهبه فى الشعر

قال خليل مطران فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه متحدثًا عن شـعره :

« عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر ، فشرعت أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى ، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى ، متابعًا عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه ، ومراعاة الوجدان على مشتهاه ، موافقًا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحيانًا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شيء منهـا إلا مـا فاتنـى علمه أو تجاوز إدراكى فهمه ، ولم أكن مبتكرًا فيما صنعت ؛ فقد فعل العرب فى كل زمان قبلى مالا يقاس إليه فعلى ؛ فإنهم توسعوا فى مذاهب البيان توسع الرشد والحزم ، وجاريتهم فى تصريف الكلام على ما اقتضاه هذا العهد من أساليب النظم .

فيا هؤلاء ، نعم هذا شعر عصرى ، وفخره أنه عصرى ، وله على سابق الشعر ، مزية زمانه على سالف الدهر .

هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت الفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ، ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه وإلى جملة القصيدة فى تركيبـها وفى ترتيبـها وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .

كذلك حاولت أن أصنع شعرى وأعرف أننى لست من العلم واقتدار الفكر فى المكان الذى يبلغنى منه أوفى المرام ، ولكننى تيقنت أن ما أردته به من الأغراض قد نفذ إلى قلوب قارئيه وأحدث فيها ما أبتغيه من الأثر ، وكفى بذلك سرورًا لى ورضى ، إلى أن يجىء فى زمانى أو بعـدى من يدرك من طريقتى الشأو الذى قصرت عنه ويصل إلى المقام الذى لم أدن منه .

على أننى أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة – ولا أعنى منظوماتى الضعيفة – وهو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعًا ، وللدلالة على صعوبة الوصول إلى الإتقان فى مثل هذا النوع من النظم نشرت فى هذا الديوان القصيدة الأولى من شعر الصبى وعدة قصائد أخرى ، كان فى وسعى أن أضرب عنها صفحًا وأن أكتفى بما أستجيده من قولى ولا آخذ على نفسى فيه شيئًا ؛ غير أننى آثرت أن يدارجنى القارىء مدارجة على كونها غاية فى الإيجاز تمثلنى لديه تمثيلاً إجماليًا فى كل حال مررت بها من أحوال هذه الطريقة ؛ وليس أكثر شعرى هذا بين الطرس والمداد إلا مدامع ذرفتها وزفرات صعدتها وقطعًا من الحياة بددتها ، ثم نظمتها فتوهمت أنى استعدتها .

على أننى لم أخل إلى الآن شعرى من كل ما آخذ عليه السابقين بسيرى على هذه الطريقة الفطرية الصحيحة ، ولكننى أرجو أن أقدم على ذلك فى المستقبل إن كان فى الأجل فسحة » .

ماذا يعنى مطران بهذا الكلام الذى ألقاه على الناس عام ١٩٠٨ ؟ ماذا يعنى بقوله : « سأجارى الضمير على هواه والوجدان على مشتهاه ، موافقًا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب » ؟ .

إنها الثورة على أوضاع الشعر العربى والخروج على ما تواضع عليه

القوم حتى ذلك اليوم ، وقد كان مطران فى ثورته ابتداعيًا متأثرًا إلى حدما تأثرا مثاليًا بالابتداعيين الفرنسيين أمثال : لامارتين وهوجو وموسيه ، لا سيما الأخير منهم الذى قال فيه :

شاعر كان عمره بيت تشبيـ ـب وكان الأنـــين فيه الرويا

وهو وصف ينطبق على شعر الشباب عند مطران الذى زخر بالمذهب الابتداعى (الرومانتيك) وتغلب فيه الشعور والخيال على العقل والتفكير مع روح من اليأس والتشاؤم والامتزاج بالطبيعة الخالدة إلى حد التفانى .

وقد تحرر مطران فى ثورته على أوضاع الشعر العربى القديم من كل ما يعوقه عن التعبير الصحيح عن مشاعره ، ولعله أول شاعر معاصر تحرر من ضرورة القافية مع العناية التامة بوحدة الموضوع ، وهذه أبيات من إحدى قصائده الباكرة :

البحر ساج والسـكينة سائده والليل داج والمدينـة راقده
غمر الظلام هضـابها وجبالها وقلاعها وصـروحها فأزالها
شبه المحيط المسـتوى وبقاعه ما لا يرى من شُمـه وبقاعه
لا نجم فى الأفق المحجـب سافر خلل السحاب ولا سـراج ساهر
وإذا أصاخ إلى الجـهات مطيف سمعا فلا ركز يحس خـفيف
إلا خطا شبح ضـئيل هائم كالوهم يسرى فى مخيلة واهم

ولقد كان لمطران علم غزير باللغة العربية وأسرارها ومفرداتها وصيغها ومبانيها ، عاونه على ثورته الابتداعية ، فأتى بكل مبتكر فى موضوعاته وتشبيهاته وصوره الشعرية الرائعة فجاءت كما أرادها :

خواطـر وضاءة بها ملامح السـهر

ألبستها من أدمعي ومن دمي هذه الحبر
قشيبة غريبة عصرية نسج مضر

وكان لمطران ما أراد من أثر في معاصريه ، فالتف حوله تلاميذه ومريدوه وتابعوا طريقته ودعموا مدرسته في الشعر العربي ؛ بل لانعدو الحقيقة إذا قلنا إن مطران قد علَّم جيلا من الأدباء ؛ ولعل الدكتور أبا شادي خير معبر عن رأي هذا الجيل بما ذكره في ديوانه « أنداء الفجر » عن مطران :

« عرفت محبة هذا الرجل الإنساني وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، إذ تعهدني صغيراً وبقيت أهتدي بهديه ، وأثره في شعري أثر عميق ، لأنه يرجع إلى طفولتي الأدبية ، ويصاحبني في جميع أدوار حياتي ؛ وإذا كان استقلالي الأدبي متجلياً الآن في أعمالي فهو في الوقت ذاته يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك الأستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة الوفية ، ناظرة إلى آثار الصبي وإلى معلمي الأول بحنان عميق » .

وإذا كان لمطران مدرسة في الشعر فإنه لم يكن صاحب مذهب في الفلسفة ، وما ورد في أشعاره في هذه الناحية لا يعدو أن يكون معاني معادة طرقها الشعراء من قبله كقوله :

همَّ فجر الحياة بالإدبار فإذا مرَّ فهي في الآثار
والصبى كالكرى نعيم ولكن ينقضي والفتى به غير داري
نعم المرء عيشه في صباه فإذا بان عاش بالتذكار

أو قوله وقد رام إظهار هوان شأن الإنسان وهو يخاطب فراعين مصر بناة الأهرام :

يا أيها الموتى ألم يسـمعكم ... صوت المـنادى صادعًا مرددا
قوموا انظروا السوقة فيما حولكم ... تدوس هامات الملوك همـدا
قوموا انظروا أجسادكم معروضة ... فى مشهد لمن يروم المشـهدا
بعث به يسألكم حـساب ما ... قدمتم من راح منا واغـتدى
لم يغنـكم منه البناء عاليًا ... والأرض نهـبا والملوك أعبدا

وكانت هذه الأشعار الفلسفية تغلب عليها صبغة الاستسلام لقدر الله وتصاريف الحياة كقوله :

فإذا وجدت الأمر مقـ ... ـضيًّا أسـرّك أم شجاك
وعلمـت أن الله يبـ ... ـلو خائفيـه كـما بلاك
ووثقت أن عظيـم حز ... نك إنما يـدمى حشاك
سلم إلى تلك الجـلا ... لة فهى من عـال تراك
سلم وقل يـا رب إن ... رضاى ما فيه رضـاك
فاجعل شقائى نعـمة ... لابنى وسعـداً فى حماك
هذا هو السنن القويم ... فكـلُّ أسـاك إلى تقاك

ومطران فى سبحاته الفلسفية هذه واسع أفق التفكير كبير القلب ، يشمل بنظرته الإنسانية جمـعاء دون النظر إلى اخـتلاف فى المذاهب أو الأديان أو الأجناس .

وهاك مثلا من هذا التفكير الفلسفى العاطفـى فى قصـته الشعرية (الطفل الطاهر) ، وهى من أروع قصصه الشعرية التى تنبع من عاطفته الإنسانية العميقة ، وفيها يثور على أحد رؤساء المذاهب الذى أصر على إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تك هذا الإبطال لألحق بولدهما البرىء العار ، وكان الزوج المسيحى تزوج على غير مذهبه الأصلى :

يا طفلُ قلب طرفك المتـــــرددا أو ما ترى شبحًا عبوسًا أســـودا
متجسسًا لك من وراء ســـــتار

هذا أســــــاء إليك قبل المولد وجنى عليك جناية المتعـــــمد
ومن الســـماء دعاك صوب النار

زعم الإله يريد مثـــــلك مذنبا من يومه ومـــــعاقبًا ومعذبا
فى الغيب قـــــبل مظنة وسرار

رسل المســيح الشـــاربين دماءه الآكلين بلا تقًى أحشـــــاءه
المولمين عليه كل نـــــــهار

الله أوحى فكرة هى دينــــــه فمن اهتدى هى نوره ويقيـــنه
أو ضلّ فليبحر بــــــغير منار

نزلت على الفادى الأمين الشافع كلمًا ثلاثا تحت لفـــــظ جامع
قدسيــــة النفـــحات والآثار

الحب فى المعنى العميم الكامل معنى المراحـــم والفداء الشامل
بالبر للأعـــداء والأنصــــار

لا تنقضــــوا بيتًا لدى تكوينه وحذار من يتم الصـــغير بدينه
وحـــذار من يأس الهضيم حذار

هذى المذاهب كلها دين الهدى كأشعة الشمس افترقن إلى مدى
والملتقى فى مصـــــدر الأنوار

* * *

شاعريته

لا شك فى أن مطران كان له خيال واسع مبتكر ونفس شاعرة شديدة الحساسية انعكست فى مرآتها الصافية أحداث عصره وانفعالات نفسه .

كان له وجدان مرهف سريع التأثر بما تقع عليه العين وما يعترض طريقه فى الحياة ، فيترجم عما يحسه بشعر بالغ فى الروعة لأن وراءه كنزاً لغوياً عظيماً ، ولذا فكثير من شعر مطران تدرك فى تضاعيفه جودة الصنعة الفنية ، من جزالة اللفظ وبسط المعنى وإبراز الفكرة وإحكام القافية ، وقد قيل إن مطران كان يشقى شقاءً مرّاً فى صياغة الشعر وإفراغه فى قالب خاص ، فالكلمة عنده لها قدرها ، والجملة لها قيمتها ، وكان يحرص أشد الحرص على انسجام موسيقاها وتناسب روابطها .

وإن الأمثال كثيرة لا سيما من هذا الشعر الغنائى المنتشر فى ديوانه ، والذى تكاد تحس موسيقى ألفاظه كقوله :

حسناء لكن تفور ... بادٍ عليها الفتور
لا تكسر الجفن إلا ... وقلب صبٍّ كسير
ولا تبسم إلا ... وجفن باك يمور
ولا تلفت إلا ... وجيرة الحى صور
يا قرةً لعيونى ... فى الصدر منها سعير
كم جئتكم مستزيراً ... وطيفكم لا يزور
إن كان صبرى قليلاً ... فإن وجدى كثير
وما المحب صدوق ... فى الحب وهو صبور

وإن الكلمات لتكاد تهتز طربًا لما حواه تركيبها من موسيقى لفظية عجيبة باستعمال اللام المكررة فى قوله :

القلــــوب والمقل   هن للهــــوى رسل
لسن للهوى عللاً   فى الهوى لها علل

أو قوله مستعملاً حرف الراء المكررة :

سررت فى العمـــــر مره   وكنتِ أنتِ المســـــــره
كانت حـــــياتى روضًا   وكنت فى الروض نضره
وكان غصنـــــا شبابى   وكنت فى الغصن زهره
وكان فـــــكرى سماءً   وكان حـــــبك فجره
وكان لحظك يهـــــدى   إلى بيـــــانى سحره

ويغلب على شعر الشباب الروح الابتداعية التى تغلب العاطفة على العقل ، وقد أخرج لنا مطران فى تلك الحقبة من حياته شعرًا فى الصدارة من الشعر الغزلى للعصر الحديث أفردنا له مكانًا خاصًا من هذا البحث .

* * *

شعر الطبيعة وشعر القصص

أما شعر مطران فى الطبيعة فسيماه الحب العميق الذى يحسه الشاعر نحو الطبيعة الخالدة إلى حد التفانى فيها والامتزاج معها ، فلا يعود هناك عنصران مختلفان بل شخصان من عنصر واحد أو روحان تتناجيان ، فاستمع إليه يتساءل عن صديق صباه النهر :

والنهر هل هو لا يزال كما　　　كنا لذاك العهد نألفه
يسقى الغياض زلاله شيما　　　ويزيد بهجتها تعطفه
يطغى حيال السد أو يجرى
متضايقًا آنـا ومنفـرجا　　　متخللا خضـر البساتين
متهـللا لتحـية الشـجر　　　متضاحكا ضحك المجانين
لملاعب النسمات والزهر

وهكذا فالطبيعة دائمًا لديه روح حية يخاطبها وتخاطبه ويحدثها ويتحدث عنها وهى تشركه شعوره وعواطفه :

وفى الهـواء حنين　　　تذوب منه الصخور
وللنسيـم حديث　　　على المـروج يدور
وللأزاهـر فكـر　　　يرويه عنـها العبير

وفى قصيدة أخرى نراه يبعد فى الخيال فيتوهم قصة حب بين وردة وزهرة من زهور الزنبق ويرويها فى شعر بلغ منتهى الرقة :

فطفت على الأزهار فى أمن نومها　　　أنبهـهـا جذبا إلى فتجفلُ
أحاول سـلوانا بتشكيل باقة　　　فأقتل منها ما أشـاء وأثكل

وما كنت من يجنى عليها خلائقًا ضعافًا ولكن جنّة اليأس تحمل
إلى أن بدت لى وردة مستكينة كأن دموع الفجر فيها تهلل
لها طلعة الجاه المؤثل والصبى وفى الوجه تقطيب لمن يتأمل
تلوح عليها للكآبة والأسى مخايل دقت أن ترى فتخيل
ويكسبها معنى الحياة ذبولها لدى ناظريها فهى فى النفس أجمل
مليكة ذاك الروض جاور عرشها من الزنبق العاتى مليك مكلل
بنية عفوًا عنهما فكلاهما شقى يود الموت والموت ممهل
فلا تسبقى سيف القضاء إليهما على أنه يشفيهما لو يعجل
حبيبان سرا ساعة ثم عوقبا طويلاً كذلك الدهر يسخو ويبخل
لقد جاورت هذى العروس أليفها لدُنْ هو مياس المعاطف أميل
فكان إذا مرت به نسم الصبا يميل إليها عاشقًا يتغزل
يداعبها جهد الصبابة والهوى ويعرض عنها لاعبًا ثم يقبل
ويرشف كلٌ من جبين حبيبه دموع الندى خمرًا رحيقًا فيثمل
ولكنه لم يلبث العود أن قسا فلم تثن عطفيه جنوبٌ وشمال
فشق عليها بينه وهو جارها وباتت لفرط الحزن تذوى وتنحل

وقليل فى ديوان الخليل الوصف الواقعى للطبيعة كوصفه لصيف الصعيد وحره :

أوقد الصيف فى الصعيد لظاهُ فأجف الحقول والآجاما
وغدا الناس بين جو كثيف مترد من الغبار غماما
وفلاة كأنما الرمل فيها شرر مدَّه لمعة واضطراما
وكأن المياه فى النيل تجرى بخطى أبطأت ووجه تعامى

وقد أكثر مطران من كتابة الشعر القصصى ، وكان لنا منه فتح جديد فى عالم الشعر العربى ، وقد اتخذ هو منه وسيلة للتعبير عن أحاسيسه الإنسانية وعواطفه الصادقة لبنى الإنسان ، فاستمع إليه باكيا متفجعًا وهو يروى قصة العوادة المتسولة التى ماتت مريضة بعد عام من زواجها فى قصيدته (وفاء) وذلك على لسان زوجها :

فجعت فؤادى يا زمان بخطبها
فليتك مرزوء الفـــــؤاد بأفجع
عروس لعام لم يتم صرعـــتها
ولو شئت لم تضرب بأمضى وأقطع
فباتت على مهد الضنى ما لجفنها
هجوع ولا جفـــنى يقرُّ بمهجع
وكانت ربيعا لى فأقوت مرابعى
من الزهر والشدو الرخيم المرجع

إن مثل هذا الشعر ينم عن شعور صادق بالمشاركة فى السراء والحزن ، وإنك لتجد منه أمثلة كثيرة كقصة (الجنين الشهيد) و (المنتحر) و (الطفل الطاهر) .

وليس كل شعر مطران القصصى أو قصصه الشعرى فواجع ومآسى ، بل هناك نواحٍ مشرقة مستملحة أجاد فيها الدعابة الخفيفة الراقية كقصة (إن من البيان لسحرا) وهى قصة شاعر عذب الحديث ساحر البيان نهيت الفتيات عن الاستماع إليه ، لكنهن لم يعبأن بالنهى وانسللن إليه خفية فأخذ يقص عليهن من القصص ما سحر ألبابهن وأوقعهن فى أسر بيانه :

سر العذارى منبىءٌ عن شاعر للحى زائرْ
فقصدنه وسخرن من زجر الأميمات الزواجر
ليرين فتنته التى تغوى العفيفات الحرائر
فوجدنه رجلاً مليـ ـحًا خلقه حسنَ الظواهر
لا شىء يفتضح النهى فيه كما ادعت النواهر
فسألنه إنشاد شىء من بدائعه الحواضر
فأطاعهن ومن ترى يعصى الجميلات الأوامر
فعقدن فيما حوله عقدًا فريدًا من جواهر
وتناول الرجل الربا ب وفكره فى الغيب ناظر
وأثار فى الأوتار تغـ ـريدًا كأن العود طائر
ثم انبرى يروى روا يته وتتبعه الخواطر

* * *

ثمْ انثنين مُكفكفاتٍ دمعهن عن المحاجر
متلفتات نحو من هو مثله غَزِلٌ وشاعر
كل تقول بلحظها يا قيس إنى بنت عامر
تالله أنصفت النوا صح ليس هذا غير ساحر

ولقد وسعت شاعرية مطران الفياضة كل فنون الشعر المنوعة ، فله فى الوطنية قصائد كثيرة، كان دائم الحنين إلى وطنه الأول الشام والفخر به

إيه آثارَ بعـــــلبكّ سلامٌ بعد طول النـــوى وبعد المزار
ووُقيت العـفاء من عَرصَاتٍ مقويات أو آهلٍ بالفـــــخارِ
ذكرينى طـــفولتى وأعيدى رسم عهد عن أعينى متوارى

* * *

أهل فينيقيا سلام عليكم يوم تفنى بقية الأدهار
لكم الأرض خالدين عليها بعظيم الأعمال والآثار
خضتم البحر يوم كان عصيا لم يسخر لقوة من بخار
وركبتم منه جوادًا حرونًا قلقًا بالممرَّس المغوار

وهو يردد هذا الشعور فى كثير من قصائده لاسيما إذا أحس آلام الاغتراب :

فذكرت مغتربى فتيًا عن عشيرى الأوفياء
بولاء طفل لمْ يذق ألم الفطام من الولاء

ولقد كان لا ينسى واجب الوفاء لوطنه الثانى الذى أحبه وأخلص فى حبه الولاء .

ولم يكن مطران متخلفا عن عصره ، بل كان يجد مادة شعره فيما حوله من بيئة وأحداث ، ولذا فقد سجل التاريخ حقبة من الحياة بكل ما فيها حتى مخترعات العلوم .

ولا شك أن الكشف عن أشعة (رنتجن) كان حدثًا فى العلوم خطيراً ، وقد سجله مطران فى شعره حيث قال :

فحدثتها عن ضياء عجيب يسر برؤيته الزائرُ
له زرقة الماء لكنه شرار من النار مطاير
كمنتشر من غبار الزمر د يحمله لهب ثائر
كأن به للعيون عيونًا فكل خفى به ظاهر
يرينا الجسوم أضالع جفت وزايلها حسنها الناضر
هياكل محكمة شادها لطيف لما شاءه قادر

وإذا أضفنا إلى شدة حساسية الخليل عمق وفائه للأصدقاء علمنا السر الكامن وراء هذه القوة الخارقة لمراثيه وهذا التفجع الصارخ فيها :

لقد قال يرثي المطران بولس سليمان ، مطران شرق الأردن :

يدعوك معــــتل وأنت بعيد   بالأمس كنـــت تعوده وتعيد
عز العزاء على السقيم يلج في   نسماته التصـويب والتصعيد
أأبا المروءة إن خطبك خـطبها   أو لم تفارقها وأنت شــهيد ؟
رزئتك طائفة يحـــار محبها   أنى يعزيها وأنت فقــــيد

وكان مطران إذا بلغه نبأ وفاة صديق من أصدقائه زلزل كيانه للنبأ وبكى صديقه بالدمع السخين قبل أن يرثيه بالشعر الرصين ، وهو يحس ألم الفراق لما سيفقده في الصديق الراحل من صداقة ومن عشير يشعر معه بدفء العاطفة الذى يجد في طلبه المغترب ويحرص عليه ، وهو ما تحسه إذ تطالع رثاءه لنقولا توما :

وقف الزمان فما لوعــــدك موعدُ   وعفا المكان فما لعهـــدك معهدُ
هي طلعة لك في الحــــياة وغيبة   كالظل إذ يبدو وإذ يتــــــبدد
بالأمس كنت وأمس في أفق التقى   شُقَّ الحجاب فكان مـــنك المولد
مات الودود الأريـــحى ولم يخب   يومًا لديه الصـــــاحب المتودد
في غربة قفراء لم يلمـــــم به   سكن هناك ولم يــــعده العوّد
يا ربِّ سلمنا وإن قطـــرت أسىً   منا حشاشات وشقـــــت أكبد

أما رثاؤه لمصطفى كامل فقد غلبت عليه الروح الوطنية وأحس بفقده كخسارة وطنية كبرى للشرق العربي قبل أن يفقده كصديق :

أعلى مكـــــانتك الإله وشرفا   فأنعم بطيب جواره يا مصـطفى
اليوم فزت بأجـــــر ما أسلفته   خيرًا وكلٌ واجـــــد ما أسلفا
وجزيت من فاني الوجود بخالد   ومن الأسى الماضي بمقتبل الصفا

فوردت وردك فى الخـــلود منعمًا ... والأرض مائدة عليك تأســـــفا
لم تُلف قبلك أمةً فى مشـــهد ... يذرو الرجال به المـــــدامع ذرفا
يمشون من حول الجنازة ضـــائقًا ... بهم الرحيب من المسالك مصرفا
بحر من الأحياء نعـــشك فوقه ... فلكٌ يظلـــــــله اللواء مرفرفا
يبكون فى آثاره العلم الــــذى ... آثاره من رفعة لا تقتـــــــفى
جزع النصارى واليهود لمســـلم ... هو خير من والى وأوفى من وفى
بكوا المرجى فى خــلاف عارض ... ليزيل ذاك العارض المتـــكشفا
واشتد رزء المســـلمين وحزنهم ... لما مضيت ولست فيهم مـخلفا
مَن بعد كاتبهم وبعد خطيـبهم ... يُعلى لهم صوتًا وينشر مصـحفا
قف أيها الناعى عليه جـــموده ... فلقد تجاوزت الهدى متفلـسفا

* * *

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها ... وأرى ترابك من حنــــين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبـــــح منبرًا ... وكأننى بك موشـــك أن تهتفا
مصر التى غسـلت يداك جراحها ... بصبـــيب دمعك جاريًا مستنزفا
مصر التى أحببـــتها الحب الذى ... بلغ الفـــــــداء نزاهة وتعففا
حتى مضـيت كما ابتغيت مؤلفًا ... من شمـــــلها ما لم يكن ليؤلفا

* * *

من كان أقدر مـــــنك تصريفًا لما ... يعيى الحكـــــيم مدبرًا ومصرِّفا
من كان أطهر مـــنك خلقًا جامعًا ... فيه مهيبَ الطبع والمســــتظرفا
من كان أزهد مـــنك إلا فى الذى ... يجدى البلاد فتبتــــغيه مُلحفا

* * *

لهفى على فخر الصبى هادى النهى عالى اللواء حمـــــى المروءة والوفا
يا من نعى تلك الفضـــائل والعلى أغدت معالمهن قـــاعًا صفــــصفا
لا لا وحقـــــك يا شهـــيد وفائه ورجائه كــــــذب النعيُّ وأرجفا
ما أنت بالرجل الذى يمســـــى وقد ملىء الوجود به ويصـــــبح قد عفا

* * *

والآن نحن لدى ثراك نحـــــجه متلهبين تشـــــــــــــوقًا وتشوفا
نثنى وهل يوفى ثناؤك حـــــقه وبأى ألفاظ المحـــــــــامد يكتفى

لقد أطلت الوقوف على هذا الرثاء لما يبدو فيه من روح الخليل السمحة التى تعالت على الصغائر ، ولما فيه من تسجيل رائع لشعور المصريين عامة لفقد مصطفى كامل ، وما فيه من دفاع مجيد عن الفقيد وآرائه ، ورد على خصومه وشانئيه ، وإثبات لحقائق تاريخية من تاريخ مصر كدنا أن ننساها .

بقى كلمة أخيرة فى الحديث عن شاعرية الخليل ، وهى أن الخليل عندما تقدمت به السن قل فى شعره جموح العاطفة ، وغلب عليه التعقل والهدوء ، اللهم إلا أن تثير شجنه ذكرى سانحة أو زهرة باسمة حتى قال فى آخر عهده :

فاعذروا ضعف شاعر يتغنى بتراجيع من بقايا اللـــــيالى

ولذلك قلت استعارته المفاجئة وتشبيهاته الغريبة وتحليقه الجامح فى سماوات الخيال ، واستحالت النظرة الابتداعية المتشائمة إلى ابتسامة فيلسوف يرقب أحداث الحياة ويسجلها .

ومع ذلك ، فقد ظل مولعًا بالتصوير الشعرى يقدمه فى مراثيه فى

نوع من الواقعية العجيبة التى يسمو بها الفن سموًّا عظيمًا لما يصاحبها من خيال خصب فسيح المدى كقوله فى رثاء الشيخ عبد العزيز البشرى :

شخص قليل ظله طاوى الحـــشى   يمشى فلا تتــــــوازن الكتفان
حفت ملامحه بمســــــحة أدمة   هى من « منا » إن شئت أو عدنان
وبعارضيه الهــــــابطين ولمة   شعثاء لم تســــــلم من الثوران

* * *

المرأة فى شعره

لقد عاش مطران حياته عزبا ، وبرغم ذلك فقد كان للمرأة أعمق الأثر فى حياته وبالتالى فى شعره ، لأنه عرفها ودرسها ، وأشاد بمكانتها بجديد نكاد لا نرى مثله فى الشعر العربى من قبله إلا نادراً .

والشعر العربى القديم فى المرأة لم يكن يعنى غالبًا إلا بمفاتن جسدها ، وأنت لا تكاد تميز بين جميلات الشعر القديم لأنهن كلهن ذوات وجوه كالبدور أو الشموس وشعر كالليل ، وجبين كالصبح ، وخد كالورد . . إلخ هذه الأوصاف الغامضة الموحدة .

والمرأة فى الشعر القديم غاليًا ما تكون متهمة ، لأنه (ليس لمخضوب البنان يمين) ، أو كما قال المتنبى مشبها الدنيا بالمرأة :

فهى معشوقة على الغـدر لا   تحفظ عهداً ولا تتمم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدرى   لذا أنث اسمها الناس أم لا

أما مطران فقد رد للمرأة العربية كرامتها واعتبارها ، وأشاد بمكانتها من المجتمع فى شعره حتى قال :

إن لم تكن أم فلا أمة   وإنما بالأمهات الأمم

وأول ما يلفت النظر فى شعر مطران أنه يعنى بخصال المرأة قبل جسدها ، ويهتم بجمال عقلها قبل جمال جسمها ، وما أروعه فى ذلك حين يقول :

أذاك الجبـــين وبلـــوره يمثل أفكـارهـــا الخاطره ؟
أتلك العيون وأنـــوارها مراء لأخلاقـــها الباهره ؟
أتلك الشفاه ومـا قبلتها سوى الأم واللذة الزائره ؟
أذاك القوام ومن حـسنه تميل الغصـون له صاغره ؟
أذاك العـــفاف ومما صفا تقربه المقـــل الناظـــره ؟

ثم هو ارتقى بالمرأة من المثالية المشوهة الغامضة فى وصف الجمال إلى واقعية فنية واضحة المعالم دقيقة الخطوط ، فتراه يقول :

لها شعر كاللـــــيل يجلو سواده بياض نهار يبهر المتوســـــــما
وعينان كالنجمين فى حلك الدجى هما نعمة الدنيا وشـــــقوتها هما
وأهداب أجفان تخــــال أشعة مصففة غراء تعكس عنــــــهما
ومنفرج عن خالص العـــاج مازن كأن الهوى قد بث فيه تنــــسما
وخصر إليه ينتهى رحب صـــدرها وقد دق حتى خـــيل بالثوب أبرما
فإن أقبلت فالغصـــن أثقله الجنى فمال قليلاً واستــــــوى متقوما

وقد عرف مطران المرأة عن الطريق الطبيعى .. طريق الحب .. لقد أحب مطران مخلصاً ، وملأ الحب شغاف قلبه وفراغ حياته ، وصبغ تفكيره ، ولون شعره ، حتى إنه ليخيل إلى أن الحب كان أساس حياة مطران وأن حياة مطران لم تكن إلا دعوة متصلة للمحبة .

وهو القائل :

سوى الحب لا يشفى الفؤاد المكلَّما
ولا يهنىء العانى وإن كان مؤلما
وما زال ذو القلب الخلىّ من الهوى
كظمآن لا يروى له مورد ظما
هو الدهر كالتيار يكتسح الورى
بليل من الأحداث أعكر أهيما
فما أسعد الروحين أن يتلاقيا
ويقتسما فيه الأسى والتنعما
كما يتلاقى فى طريق مخوفة
غريبان نالت شقة السير منهما
وكم عاشق يسلو رزاياه بالهوى
وقد يجتلى وجه الهناء توهما
كسالك وعر راقه حسن كوكب
فأرجله تدمى وعيناه فى السما

ولعل قلب مطران قد هفا لكثيرات من النساء فَقال فيهن شعرًا ، لكنه لم يتعلق سوى بواحدة ، ولا شك فى أنه عرف غيرها ، لكنه لم يحب سواها ، ولم يخلص الهوى إلا لها .

وقصة هذا الحب طويلة ، وحوادثها منتشرة فى ديوانه ، ولو أنه أفرد لها فى الجزء الأول قسمًا خاصًا بعنوان (قصة عاشقين) ، لكنى أعتقد أن هذه القصة أطول بكثير من هذا القسم المحدد من الديوان .. إنها الشعلة التى تأججت فى صدره يافعًا حين التقى بهذه الحبيبة ، وقد لسعتها نحلة فقال :

أفتدى من لسعتها   نحلة تطلب وردا
ظنت الوجنة وردًا   فأتت ترشف شَّهدًا

وسعد بجوارها دهرًا قصيرًا له أثر فى حياته كبير ، وذكرى لم تمحها الأيام . . ذكرى ذلك الحب الساذج واللهو البرىء :

هل تذكرين ونحن طفلان عهدًا بزحلة كـــله غنم
إذ يلتــقى فى الكرم ظلان يتضاحكان ويأنس الكرم

* * *

هل تذكرين بلاعــنا الحسنا حين اقتطاف أطايب العنب
نعطى ابتســامات بها ثمنًا وبنا كنشــوتها من الطرب

لكن الدهر لم يغفل عن هذه السعادة ، فاختطف هذى الحبيبة سريعًا وخلف لمطران لوعة وأسى صاحباه ما بقى من العمر ، وكأنى بالدهر قد غار من هذه السعادة كما يقول مطران :

كنا كغصنى دوحـــة نبتا بل زهرتى غصـــنٍ تعـانقتا
بل حبــــــتين بزهرة نمتا وتساقتا لما تعاشـــــقتا
ناز الغرام مع الندى العذب تمت ســـعادتنا على قَدَر
فسطت عليــها غيرة القدر أودت معًا بالعـــين والأثر
واســتبقت الباقى من الخبر ذكرى وتبــصرة لذى لب
ماتت وكل ضــاحك جذل ما للورى ولموت من جـهلوا
لا قلب يبـــكيها ولا مقل بل نبــلها واللطف والأمل
وشـــبابها وطهارة القلب

وقد هاجر مطران من موطنه بسبب هذا الرزء ، كما يشير فى قصيدته « مشاكاة » :

أرى مثل سُهدىَ فى الكوكب أحلَّ به مـــثل ما حل بى ؟
يهيم هيامى من وجـــــده ويهرب من مـــهده مهربى ؟

ونجتاز هذا الفضاء الرحيب إلا بنا فـــــهو لم يرحب

وتأججت نيران هذه الشعلة بفعل الفراق ، فألهبت مشاعر مطران ، وأشقته دهرًا طويلاً ، حتى داخل نفسه اليأس ، واصطبغت نظرته للحياة بصبغة التشاؤم ، وعظم حزنه على حبيبته ، حتى خال كل الوجــود حزينًا .. فانظر إليه يصف الغروب الذى تغنى به الفنانون والشعراء :

يا للغـــــروب وما به من عَبرةٍ للمســـــــتهام وعبرة للرائى
أو ليس نزعًا للنهار وصـــــرعة للشمس بين جنازة الأضـــواء ؟
أو ليــس طمسًا لليقـــين ومبعثًا للشك بين غلائل الظلـــماء ؟
أو ليس محواً للوجود إلى مدى وإبادة لمعـــــــــالم الأشياء ؟

بل حتى الموت تمناه لنفسه فقال :

من بالمنــــــــون لواله صبّ ذاكى الأضـــــالع مقلق الجنب
ليت الرزيئـــــة فيكِ أودت بى فنـــــجوتُ من ألمى ومن كربى
وفزعت من نفســــــى إلى ربى

وهو يردد نفس المعنى فى قصيدة أخرى :

إن لى فى الغيــب إلفًا قـــد نأى عـنى نفورا
حجبــت منـه الليالى عنـــى الصـبح المنيرا
فإذا أدركتـــه أطــفأ تُ من وجدى السعيرا
واتحـــدنا فـاغتـــدينا مَزْج روحــين ســـرورا

وظل مطران حافظًا لعهده ، ذاكرًا لحبه ، وإذا كان حزنه قد تناقص مع الأيام إلا أن شعلة الحب بقيت مضيئة فى قلبه تنعكس أشعتها على أشعاره رقة وعذوبة .

* * *

أعمـــــاله

قال الخليل :

ويظل المـــرء فى دنيا ... هُ من شغـــل إلى شغل
يُجدُّ منى ويخـــلقها ... على الأعـــوام كالحلل
ومن سنة إلى ســـنة ... يعـــاودها بـــلا ملل
فمن أمـــل إلى يأس ... ومـــن يأس إلى أمـــل
ولا سعدٌ ولا سلوى ... ولا مجد سـوى العمل

ولقد تمثل الخليل ما قال ، وعاش حياته مجداًّ فى العمل ، فأنتج كثيراً فى الشعر والأدب برغم مشاغله فى دنيا الصحافة والمال وميادين الاقتصاد المختلفة وإدارة المشاريع المنوعة .

استطاع الخليل برغم هذه المشاغل أن يهدى الأدب العربى ترجمة العيون من أعمـــال أدباء الغـــرب (كلياالى ألفريد دى موسيه) ، ورواية (هرنانى) لفيكتور هيجـو ، وترجـم لكـورنى مسـرحيات (السـيد) و(سينا) و(بولكيت) ، وترجم لراسين رواية L ' incomparable Bérénice ولشكســــبير رواياته الخالدة (هملـــت) و (ماكبث) و (عطيل) و (تاجر البندقية) و (الملك لير) وغير ذلك من الترجمات كما أصدر كتابه (مرآة الأيام) .

وكتب فى غير الأدب فترجم « تعليم الإرادة » لبايو و « التاريخ الطبيعى » لفيكتور ديرى و « الموجز فى علم الاقتصاد » و « الأحوال الزراعية فى القطر المصرى » .

وأخيراً أصدرت لجنة تكريم الخليل ديوان شعره كاملاً ، فما أحرى الخليل أن يوصف بقوله :

أبقيت ذكرك فى القلوب كريمًا ... وقضـــيت حيًّا وارتحلت مقيما

* * *

علی محمود طه

يا مرسل النغم العالى صـدى ورؤى ينصب فى أذن الدنـــيا وينساب
غنت به ضفتا الـوادى ورجـــعه من ألسن الشرق أشـهاد وغياب[١]

أى على ! يا شاعر الجندول الحزين ما زالت أغانيك تملأ فراغ الكون وتتردد على كل لسان ومازالت ذكراك ماثلة أمام قلبى فى كل وقت تزكيها هذه الأغنيات الحالمة التى ترددها إذاعات العالم فى كل ساعة من نهار وليل ومازلت تحتل مكانك من مدرسة الشعر العربى الحديث التى كنت أحد دعائمها وتلاميذها المخلصين بل كنت أبرزهم طرا وأعمقهم أثرا وأبعدهم ذكرا .

وكم نفس عليك هذه المكانة من عالم الشعر الكثير من الشعراء والأدباء وغيرهم وكم من قائل : « كيف يسلك هذا الدخيل مسالك الشعراء ؟ » وكأن العاطفة الفياضة وقف على قوم دون آخرين أم كأنه ليس للمهندس أو الطبيب أو غيرهما من أصحاب المهن فى الحياة أن يعبروا عن مشاعرهم أدبا أو شعرا .

وكم من الناس حالت دونهم ظروف الحياة وبين ما يبتغون من عمل فى الحياة أو طريق .. وهل على طه إلا أحد هؤلاء الذين حولتهم ظروف العيش إلى غير وجهتهم الأولى ؟ .

لقد ولد ببلدة المنصورة فى شهر يولية سنة ١٩٠١ فى بيت من بيوتها العريقة إلا أن أباه كان تاجرا غير ذى ثراء وقد توفى عنه وهو فى التاسعة من عمره فكانت وفاته صدمة أليمة للطفل ولأسرته إذ أثرت على مورد دخلها تأثيرا كبيرا ولعلها أذاقته ضروبا من الحرمان الباكر الذى أثر

---

(١) من رثاء حسن كامل الصيرفى للفقيد .

فى حياته وشعره .. وأول هذه الآثار وأعمقها التحاقه بعد أن نال شهادة الدراسة الابتدائية بمدرسة الفنون والصناعات الخديوية ببولاق ليختصر طريقه إلى الحياة العملية .

وقد عمل بعد تخرجه فيها كمهندس للمبانى بمصلحة المبانى الأميرية ثم مديرا لقسم المبانى والمعارض بوزارة التجارة والصناعة ، فوكيلاً لمتحف فؤاد الأول الزراعى فمديرا لمكتب رئيس مجلس النواب .

كانت شخصية الشاعر المرحة الجذابة تضفى على كل وظيفة تقلدها مركزا ممتازا مهما صغرت وتحيطه هو بالإكبار والتقدير لما امتاز به من خلق جميل وتواضع عف وحديث عذب .

وكان عمله كوكيل لدار الكتب المصرية آخر منصب تقلده فى حياته الدنيا ولم تنقض على التحاقه به أشهر معدودات حتى اختطفته يد المنون فى السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٤٩ .

بيئة الشاعر

ولد على طه ومات فى النصف الأول من القرن العشرين وما أن شب عن الطوق وبدأ يتلمس طريقه فى الحياة حتى وجد أن كل ما حوله فى الوطن ثائر على وضعه .. هذا خليل مطران يتزعم ثورة فى الشعر وهؤلاء طه حسين والعقاد والمازنى يحاولون هدم ما تواضع عليه القوم وما قدسوه من وظائف الأدب العربى وأوضاعه بينما قاسم أمين يتزعم ثورة اجتماعية داعيا نصف الأمة للخروج إلى العمل والسفور بعد طول حجاب .. وهاهى ذى أصداء دعوة محمد عبده للتجديد فى المجال الدينى بل ها هى ذى الأمة كلها تثور ضد الغاصب المفتئت على حقوقها وجميع قيم الحياة فى القطر تتغير وتضطرب أمام ناظريه .

يرى الشاعر كل ذلك ويلمسه ويدرك بعقله وعاطفته حيرة بيئته وتذبذبها بين الأخذ بمدنية الغرب وتقاليد الغرب وعادات الغرب وبين

الاحتفاظ بمقوماتها الشرقية وتقاليدها الموروثة وبين الاندفاع فى تيار اللادينية الغربية أو الإبقاء على روحانية الشرق الكريمة ويرى النساء المصريات يحاولن نزع الحجاب عن وجوههن لكنهن يشفقن من ذلك حياء ويخشين النقد والتجريح .. فيقع هو نفسه فى حيرة أو بالأحرى تنعكس على وجدانه الحساس صور هذه البيئة .

وحين يتحدث الدكتور طه حسين باشا عن ديوان « الملاح التائه » يصور لك حيرة الشاعر قائلا « فأما معرفتي لشاعرنا المهندس قد أرضتنى فلأن شخصيته الفنية محببة إلى حقا فيها عناصر تعجبنى كل الإعجاب وتكاد تفتننى وتستهوينى فيها خفة الروح وعذوبة النفس وفيها الحيرة العميقة الطويلة العريضة التى لاحد لها كأنها محيط لم يوجد على الأرض ... ولقد صحبت الملاح التائه فى قصيدة « الله والشاعر » فأحسست كل هذا الذى صورته لك آنفا ورأيت رجلا لا هو بالشاك المطمئن إلى الشك ولا هو بالمستيقن المطمئن إلى اليقين ولا هو بالمنكر المستريح إلى الإنكار وإنما هو رجل مضطرب حقا ، مضطرب أشد الاضطراب يؤمن بالقضاء والقدر ثم يثور بالقضاء والقدر ، يرضى أحكام الله ثم يجادل فيها .. يشكو ثم يستسلم ويستسلم ثم يشكو ... رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر وأكبر الظن أنه لو استقر لكان أشقى الناس فهو سعيد بحيرته مغتبط بهيامه مبتهج بهذا التيه الذى دفعته إليه نفس طموح جدا لأنها نفس شاعر عاجزة جدا لأنها نفس إنسان »(١) .

يبدأ على طه قصيدته « الله والشاعر » التى تمثل حيرته أروع تمثيل يطلب المغفرة من الله لما زل به اللسان فى سورة الغضب وآلام الحيرة :

لا تفـــرقى يا أرض لا تفـــرقى	من شبح تحـــت الدجى عابر
مـــــا هـــو إلا آدمـــى شـــقى	سمـــــوه بين الناس بالشاعر
طغى الأسى الداوى على صوته	يا للصـــــدى من قلبه الناطق
مضى يبـــث الدهـــر فى خفية	شكاية الخلـــق إلـــى الخالق
لا تعدنى يا رب فى محـــنتى	مـا أنـــا إلا آدمـــى شـــقى

(١) الجزء الثالث من حديث الأربعاء للدكتور طه حسين باشا .

طردتني بالأمس من جنتي | فاغفر لهذا الغاضب المحنق
حنانك اللهم لا تغضب | أنت الجميل الصفح جم الحنان
ما كنت في شكواي بالمذنب | ومنك يا رب أخذت الأمان

ثم يمضي يتلمس الأعذار لأخطائه ونزواته فيقول :

تمردت روحي على هيكلي | وهيكل الجسم كما تعلم
ذاك الضعيف الرأي لم يفعل | إلا بما يوحي إليه الدم
ومثلما قدرت صورتها | فروحك الصوت وروحي الصدى
طبيعة في الخلق ركبتها | وما أرى لي مال بناها يدا
لكنما روحك من جوهر | صاف وروحي ما صفت جوهرا
أولا ، فما للخير لم يثمر | فيها؟ وما للشر قد أثمرا ..
تقول روحي إنها ملهمة | فهي لما قدرته متبعه
مقودة في سيرها مرغمة | وإن تراءت حرة طيعة

ومع كل فلست بأول مخطيء بل إن الخطيئة إرث في دمائي قديم :

ولم أكن أول مغرى بما | أغرت حواء أو آدما
إرث تمشي في دمي منهما | ميراثه ينتظم العالما

لكن هذه الثورة في القصيدة تنتهي بالشاعر إلى أن يعود إلى ربه فهو الملجأ من كل أمر عسير :

ما عرفوا في صعقات الردى | إلاك من غوث ومن منجد
ولا سرى في الأرض منهم صدى | إلا ودوى باسمك الأمجد

يقف طه حسين باشا عند هذه المقطوعة من الشعر ليستنتج لنا إن

حيرة على طه مبعثها تردده بين الشك واليقين .. بين الإيمان وبين الثورة على هذا الإيمان بينما يذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات بك فى تعليل هذه الحيرة إلى ما كان يعانيه الشاعر فى صدر حياته من آلام الكبت والحرمان .. الحرمان من الحب والمرأة فى سن لا ينشد فيها الشاب غير الحب ولا يبصر سوى الجمال ولا يسعى إلا إلى اللذة ولا يحس الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوى الرقيق يهتز لها الكون طربا .

ومرجع هذا الكبت والحرمان إلى ظروف البيئة فى الربع الأول من هذا القرن فهذه البيئة سواء فى محيط الأسرة أو المدرسة أو المجتمع تبعث على الانطواء وتدعو إلى التكبيل بكل قيد من القيود ، فالتقاليد الموروثة تفرض على الشباب فرضا بما فيها من نظم عنيفة وأساليب صارمة وكل عبث بهذه التقاليد عبث بقواعد الشريعة والعرف والآداب والأذواق حتى إذا خطر للشباب شيىء من التجديد فى وسائل العيش ومظاهر الزى وطرائق التفكير كان ذلك فى رأى القائمين على أمرهم خروجا على النظام وثورة على الاحتشام واندفاعا إلى هاوية الغى والفساد وانحرافًا عن معانى الفضيلة ومناهج الأخلاق .

وكانت بيئة انعدم فيها الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة حين وقفت التقاليد الموروثة وبقايا الحجاب سدا هائلا وجدارا منيعا بين الشباب من الجنسين (١) .

ولم يجد على طه ما يفرج عن آلام نفسه سوى إرسال قصائده الحزينة التى يقرضها إلى مجلة « السفور » ، التى كان يشرف عليها الأستاذ الزيات فى ذلك الوقت ولقد تلقى أولى قصائده وعنوانها « الأمسية

(١) بحوث الأستاذ أنور المعداوى فى الرسالة عن على طه .

الحزينة »[١] غفلا من الإمضاء[٢] فصحح ما فيها من أخطاء وقدم لها ببضعة أسطر تنبأ فيها بنبوغ الشاعر ونصح له إن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن وأخذ عليه هذا الروح الحزين الذى يحمل عليه قيثارة المرح والشباب ولكن أنى للشاعر أن يظفر بهذا المرح والزيات نفسه الذى ينصحه لم يستطع الظفر به فى ظروف البيئة المشابهة ... هذه البيئة الانطوائية ذات المزاج الحزين فالزيات يصف هذه البيئة وأثرها فى نفسه فى المجلد الأول من « وحى الرسالة » فيقول :

« تسألنى لماذا ترجمت ڤرتر ... والجواب عن هذا السؤال حديث والحديث غدا سيكون قصة وليس يعنيك اليوم منها إلا ما نجم عنها . قال جيته يوما لصديقه اكرمان « كل امرىء يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن « ڤرتر » إنما كتبت له خاصة » .

وأنا سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين . شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى حس مشبوب يتوقد شعورا بالجمال وقلب زغيب يتحرق ظمأ إلى الحب ونوازع طماحة ما تنفك تجيش وعواطف سيالة ما تكاد تتماسك ... فالطبيعة فى خيالى شعر وحركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة وكان فهمى لكل شيىء وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال وزوّر نتائجه المثل الأعلى ثم غمر هذه الحال التى وصفت هوى دخيل هادىء ولكنه ملح فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة وأحسست أن وجودى الحالى قد امتلأ وقلبى الصادى قد ارتوى وحسى الفائر قد سكن وتخيلت أن حياتى الحائرة قد أخذت تسير فى طريق لاحب تنتثر على مدارجه نواضر الورود وترف على جوانبه نوافح الريحان وتزهو على حواشيه ألوان عبقر وترقص على حفافيه عرائس الحور . وذهبت أسلك هذا الطريق السحرى محمولا على جناح الهوى كأننى (فوست) على

(١) من رسالة شخصية من الأستاذ عبد الحميد طه شقيق الشاعر .
(٢) كان ذلك عام ١٩١٨ .

جناحى (ميفستوفاليس) حتى ذكرنى الزمان الغافل فأقام فيه عقبة اصطدم عندها الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة على أننى بقيت على رغم الصدمة حيًّا ولابد للحى أن يسير !

تطلعت وراء العقبة انظر الطريق فإذا الأرض قفو والورد عوسج والريحان حمض والعرائس وحوش ٠٠٠ فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس ولكن أين أنشد ما أبغى وحولى من الفراغ نطاق مخيف وأمامى على أسنة الصخور أشلاء وجثث ؟ هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعينى وهذه أرواح قتلاه تتهافت على وهذه سجلات مصارعهم بين يدى فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحلى وأقطع بمناجاتهم مراحلى والتمس فى مواجعهم لهواى عزاء وسلوة ؟

قرأت : هيلويز الجديدة ورينيه وأتالا وأدولف ودمينيك وماريون دلورم ومانون ليسكو وذات الكاميليا وجرازيلا ورفائيل وچان دكريف ٠٠ وتوثقت بأشخاصها صلاتى وتصعدت فى زفراتهم زفراتى وتمثلت فى نهايتهم المحزنة نهايتى ولكنهم كانوا جميعا غيرى نتفق فى الموضوع ونفترق فى الوضع كالنساء النوادب فى مناحة تندب كل واحدة منهن فقيدها وموضوع الأسى للجميع واحد ٠٠ هو الموت ٠

فلما قرأت « آلام ڤرتر » سمعت نواحا غير ذلك النواح ورأيت روحا غير هاتيك الأرواح وأحسست حالا غير تلك الحال ٠

فنيت فى « جيته » وقادنى إلهامه وروحه وأهبت بلغة القرآن والوحى أن تتسع لهذه النغمات القدسية فأسعفتنى ببيانها الذى يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون ٠ ثم أصبح ڤرتر بعد ذلك لنفسى صلاة حب ونشيد عزاء ورقية هم !! كأنما كان (جيته) يناديها من وراء الغيب حين يقول فى تقدمته لڤرتر : وأنت أيتها النفس ٠٠ إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدى الصبر والعزاء من آلامه وتلمسى البرء والشفاء فى أسـقامه واتخـذى هـذا الكتاب صاحبا وصديقا إذا أبى عليك دهرك أو خطؤك أن تجدى من الأصدقاء من هو أقرب إليك وأحنى عليك » ٠

وكان على طه أحد أفراد تلك البيئة فراح فى صدر شبابه ينفث شكاته الملحة فى أشعاره فهو يقول :

أيها الشاعر الكئيب مضى الليـ ـل ومازلت غارقا فى شجونك(١)
مسلما رأسك الحزين إلى الفكـ ـر وللسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع وأخرى فى ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر أنفاسـ ـك يطغى على ضعيف أنينك
أنت أذ بلت قلبك الغـ ـض وحطمت من رقيق كبانك

ولعل أبلغ ما قاله معبرا عن شعوره بالوحدة فى مجتمعه قوله :

والأرض ضاق فضاؤها الرحب وخلت فلا أهل ولا سكن(٢)
حال الهوى وتفرق الصحب وبقيت وحدك أنت والزمن

ولقد كان على طه يعانى فى صدر شبابه حرمانا آخر أشد إيلاما فى نفس الشاعر الموهوب الذى يحس بمقدرته ونبوغه .. ذلك هو الحرمان من التقدير الذى يزكى مواهبه ويدفعه إلى الإجادة والإنتاج ومرجع هذا الحرمان إلى قلة القراء لاسيما هؤلاء الذين يحفلون بالشعر حتى خيل إليه أن الأمر مرجعه إلى جحود العبقريات فى الشرق :

أيجحد فى الشرق النبوغ ويزدرى ويشقى بمصر النابهون الغطارف ؟(٣)
يجوبون آفاق الحياة كأنهم رواحل بيد شردتها العواصف

كما أن بيئة الشاعر كان لها أثر كبير فى توجيه مطالعاته فلقد وجد كبار أدباء هذه البيئة ممن نهلوا من الثقافة اللاتينية ومعظمهم حينما سافر فى طلب العلم قصد إلى فرنسا وحج إلى مدينة النور كما يزعمونها وكانت ترجمة أعمال الأدباء الفرنسيين تغمر سوق الأدب العربى لاسيما الابتداعيين منهم أصحاب المذهب الرومانتيك وهو المذهب الذى مهدت

(١ ، ٢ ، ٣) ديوان « الملاح التائه » .

البيئة نفس الشاعر لقبوله بل زادته به تعلقا لأنه مذهب يتغلب فيه الشعور والخيال على العقل والتفكير مع روح من اليأس والتشاؤم والامتزاج بالطبيعة الخالدة – كعوض عن شعور الوحدة – إلى حد التفانى .

أما اليأس فقد تغلغل فى قلب الشاعر الشاب إلى أغوار عميقة لاسيما بعد أن وقف ليواجه الحياة بمفرده فهالته حقيقتها البشعة وقسوتها العاتية التى لم تأخذها الرحمة فيما صنع له خياله المحلق من عالم مثالى جميل قوضت دعائمه حقائقها المرة .

فاستمع إليه يقدم لقصيدته « التمثال »[1] نثرا فيقول « الإنسان صانع الأمل ينحت تمثاله من قلبه ومن روحه ولا يزال عاكفا عليه يبدع فى تصويره وصقله متخيلا فيه الحياة ومرحها وجمالها ولكن الزمن يمضى ولا يزال تمثاله طينا جامدا أو حجرا أصم حتى تخمد وقدة الشباب فى دم الصانع الطامح وتشعره السنون بالعجز والضعف فيفزع إلى صيد أحلامه هاتفا بتمثاله ولكن التمثال لا يتحرك ولكن الحلم الجميل لا يتحقق وهكذا تجتاح الليالى ذلك المعبد وتعصف بالتمثال فيهوى حطاما وهنا يصرخ اليأس الإنسانى ويمضى القدر فى عمله » .

ويصرخ الشاعر حقا فى ختام القصيدة مصورا أقصى درجات اليأس من هذه الحياة الدنيا :

مر نور الضحى على آدمى ... مطرق فى اختلاجه المصعوق
فى يديه حطامه الأمل الذا ... هب فى ميعة الصبا المرموق
واجما أطبق الأسى شفتيه ... غير صوت عبر الحياة طليق
صاح بالشمس : لا يرعك عذابى ... فاسكبى النار فى دمى وأريقى
نارك المشتهاة اندى على القلـ ... ـب واحنى من الفؤاد الشفيق
فخذى الجسم حفنة من رماد ... وخذى الروح شعلة من حريق

(١) ليالى الملاح التائه .

جن قلبي فما يرى دمه القـ ـانى على خنجر القضاء الرقيق

وفى هذه البيئة المنطوية على نفسها المترددة فى خطوها ونهوضها المتحفظة فى أوضاعها يلجأ الشاعر إلى الطبيعة يبثها الآمه ويشكو لها أحزانه ويتخذها رفيقا حنانا يهجع بين أحضانها وينسى أشجانه بين رياضها وأفنانها ويتفانى فى حبها فاستمع إليه فى نفس القصيدة يقول وقد اتخذ من الطبيعة رفاقا وشهودا وأصحابا بل وأما حانية عليه :

أقبل الليل واتخذت طريقى لك والنجم مؤنسى ورفيقى
وتوارى النهار خلف ستار شفقى من الغمام رقيق
مد طير المساء فيه جناحا كشراع فى لجة من عقيق
هو مثلى حيران يضرب فى الليـ ـل ويجتاز كل واد سحيق
عاد من رحلة الحياة كماعد ت وكل لوكره فى طريق
شهد النجم كم أخذت من الر وعة عنه ومن صفاء البريق
شهد الطير كم سكبت أغانيه على مسمعيك سكب الرحيق
شهد الكرم كم عصرت جناه وملأت الكؤوس من أبريق
شهد البر ما تركت من الغـ ـار على معطف الربيع الوريق
شهد البحر لم أدع فيه من در جدير بمفرقيك خليق
ولقد حير الطبيعة أسرا ئى لها كل ليلة وطروقى
واقتحامى الضحى عليها كراع أسيوى أو صائد أفريقى
أو إلّه مجنح يتراءى فى أساطير شاعر أغريقى
قلت لا تعجبى فما أنا إلا شبح لج فى الخفاء الوثيق
أنا يا أم صانع الأمل الضا حك فى صورة الغد المرموق

أما الخيال فهو من أدوات الشعر التى لا يستغنى عنها شاعر فى الوجود غير أنه يختلف قوة وضعفا من شاعر لآخر وقد كان عند على طه فى أوج قوته وروائع عظمته يسبح به فى عوالم من الرؤى والأحلام الجميلة ويحلق به فى آفاق رحبة من دنيا الابتداع فيأتى لنا بالعجيب من الصور والمبتكر من الفنون كملحمته الشعرية « أرواح وأشباح » وهى كتاب أفرده لحوار من الشعر بين آلهة الإغريق القدماء فى عالم الأرواح وبين شخصيات خرافية وآلهة شرقية وحد بينها هذا الحوار الذى رمى إلى تصوير حياة الشاعر ومصادر إلهامه .

وفى ديوانه « زهر وخمر » يقدم لنا فى قصيدته « حانة الشعراء » صورة مماثلة رائعة الخيال تجمع بين السمراء والبيضاء وبين ساكنة الأرض وساكنة السماء وقد تعمد أن يجعل أهل الفن يقبلون على فن راقصة زنجية معجبين فتحنق « ڤينوس » ربة الجمال لانصرافهم عنها وهو فى كل ذلك يرمز إلى الصراع القائم والذى ازداد عنفا فى عصرنا الحالى بين ارستوقراطية الفن والاتجاه به نحو الجماهير لمحاولة السمو بأزواقها .. فاستمع إلى بعض ما قال :

هى حانة شتى عجائبها — معروشة بالزهر والقصب
فى ظلة باتت تداعبها — أنفاس ليل مقمر السحب
« باخوس » فيها وهو صاحبها — لم يخل حين أفاق من عجب

* * *

إبريقه – حلى من الدرر — يزهى به قدح من الماس
وكأن ما حوليه من صور — متحركات ذات أنفاس
تركت مواضعها من الأطر — ومضت فى شبه أعراس

* * *

أو تلك حانته ؟ فواعجبا أم صنع أحلام وأهواء ؟
ومن الخيال أهل واقتربا «ڤينوس» خارجة من الماء
فى موكب يتمثل الطربا ويميل من سحر وإغراء
وبكل ناحية فتى وثبا متعلقا بذراع حسناء
يتوهجون صبابة وصبا يتمثلون غريب أزياء

* * *

جلسوا نشاوى مثلما قدموا يترقبون منافذ الباب
يتهامسون وهمسهم نغم يسرى على رنات أكواب
إن تسأل الخمار قال همو عشاق فن أهل آداب

* * *

وتلفتوا لما بدا شبح فنانةٌ دلفت من الباب
سمراء بالأزهار تتشح ألقت غلالتها بإعجاب
ومشت تراقصهم فما لحوا إلا خطى روح وأعصاب
وسرى بسر رحيقه القدح فى صوت شاجى اللحن مطراب
وشدا بجو الحانة الفرح لآلهة فرت من الغاب

* * *

هى رقصة وكأنها حُلُمُ وإذا بفينوس تمد يدا
الكأس فيها وهى تضطرم قلب يهز نداؤه الأيدا
زنجية فى الفن تحتكم ؟ قد ضاع فن الخالدين سدى !
فأجابت السمراء تبتسم ألفن روحا كان؟ أم جسدا؟

ولم يقتصر أثر البيئة على شاعرنا فى توجيه مطالعاته نحو الثقافة اللاتينية ومتابعة كبار أدباء عصره كمطران والزيات وغيرهما بل نراه يبالغ فى اقتفاء آثار هذه الثقافة وخطوات هؤلاء الأدباء فيحن إلى ارتياد منابع هذه الثقافة والنهل منها وما إن تتيسر له أسباب الرحلة حتى يبادر بالسفر إلى أوربا فيرتادها عام ١٩٣٣ ويعاود السفر إليها أربع مرات أخر فى عام ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وهو فى ألمانيا عام ١٩٣٩ .

ولعله فى رحلاته إلى أوزوبا قد فكر أيضا فى الابتعاد عن قيود البيئة والتطلع إلى ما فاته فى وطنه من أسباب اللهو والملذات التى تحوطها فى مصر بعض القيود والمواضعات .

ولقد ظهرت آثار هذه الرحلات فى شعره وانتشرت صورها فى دواينه وأول ما انطبع فى مخيلة الشاعر هو الفارق فى نظره بين ما رأى من جمال الطبيعة والإنسان هناك وما خلفه وراءه فى وطنه فذهب يقارن بينهما فى قصيدته عن بحيرة كومو بوادى اللمباردى الإيطالى :

شاعر النيل طف بها غنها كل مبتكر
الثلاثون قد مضت فى التفاهات والهذر
فتزود من النعـــ ـــيم لأيامك الأخر
أين وادى النخيل أم قاهـــريـــاته الغـــرر
لا تقل أخصب الثرى فهنا أورق الحجر(١)

وتنتهى به هذه المقارنة إلى تمنى الهجرة من وطنه إلى هذه المرابع الجميلة لولا أحبة بشاطىء النيل حبهم أقوى من هذه الأمنية وآثار راحلين أعزاء :

(١) ليالى « الملاح التائه » .

آه لــــولا أحـــبة	نزلوا شاطىء النهر[1]
ورفـــات مطـــهر	وكريم مـــن الســـير
لتمنـــيت شـــرفة	لى فى هـــذه الحجر
اقطع العمـــر عندها	غيروان عن الســـطر
فلقـــد فـــاز من رأى	ولقـــد عـاش من ظفر

أجل لقد فاز من رأى لكن الذى يظفر ببغيته هو الذى عاش حياته حقا ... وعلى طه يحس وقد تخطى الثلاثين أنه قد أضاع العمر فى وهم باطل وخيال لا طائل وراءه ... بينما هناك فى أوربا حياة ومتعة فليسرع باغتنامهما قبل أن تضيع البقية الباقية من العمر ويكفيه ما قاساه من حرمان :

ليالى البحر فى « كابرى »	أم الفتنة فى البحر
وجنيات بحر الروم	أم دنيا من السحر
على شط من الأحلام	والأنغـــــام والزهر
تنفس جـــــوها عطرا	يفضضه سنا البدر
أريج البرتقال به	ونفح العنب النضر
أم الآلهة العشاق	بين الموج والصخر
أهلُّوا تحت أشرعة	تقل عرائس الشعر
نشاوى الحسن والنور	وبعض النور كالخمر
تنهد حين أبصرهم	محب موغر الصدر
أقام الدهر موتورا	من الحرمان والهجر

وإذا كان جمال « كابرى » قد شغل جانبا من هذا القصيد فإنا نراه

(١) ليالى « الملاح التائه » .

فى أنشودة أخرى يفرغ نفسه كلها للحب ونشوته ويدعو رفاقه لاغتنام ساعته :

يا رفاقى هـــذه الســاعة من حلم الزمان
إن هذا زمن الحــــب فضجــوا بالأغانى
ارفعوا الأقداح ملأى واشربوا نخب الحسان
فالربيع السمح يدعـــوكم إلى أقرب حان

* * *

الربيع المرح الجـــذلان يخـــتال فحــوراً
إنه الحسن الذى يملأ بالحــــب الصـــدورا
كيف لا نقطف منه الثـــمر الحلـــو النضيرا
أنت أيتـــها الشمس املإى الآفاق نورا(١)

ورغم هذه النشوة الغامرة التى يحسها الشاعر فى تلك البيئة الجديدة والانطلاق إلى تحصيل المرح والحب فهو لا ينسى مصريته بل نراه يعتز بقوميته ووطنه فيخاطب صاحبته إلى بحيرة كومو بإيطاليا وهى أمريكية بقوله :

يا ابنة العالـــم الجديد   صلـــى عالما غبـــر
فى دمى مـــن تراثه   نفحة البدو والحضر
وأغان لمــــن شـــدا   ومـــعان لمـــن فخر

لكن على طه الشاعر يرى فى هذه البيئة الجديدة عليه أشياء أخرى غير ذلك .. إنه يحس أن هذه البيئة تطغى عليها المادة وتصبغ المادية جميع مظاهرها حتى أديها ... لقد نحى المذهب الابتداعى الذى يسود فى وطنه الأصلى عن مكان الصدارة هنا وتغلب عليه مذهب جديد يوائم

(١) أغنية الحب من ديوان « زهر وخمر » .

هذه البيئة بعد عام ١٩٣٠ . . لقد كانت الواقعية هي الغالبة في الأدب الأوربي عامة .

ولعل علي طه قد اقتنع بأن المذهب الواقعي في الشعر والأدب هو الأنسب لتلك البيئة المادية وهو الأفضل لملائمة التطور العصري في مصر أيضًا لأنه تطور نحو المادية يسير في اتجاه مضاد للخيال الابتداعي لكنه عاش بعدها مترددا بين الطريقين حتى إن القصيدة الواحدة تحس إذا قرأتها بحيرة كاتبها هذه ففي قصيدته « راقصة الحان » تراه يصف الراقصة وصفا واقعيا رائعا وينقل لنا صورة حية لرقصتها فيقول :

تضم الوشاح وتلقى به ... وفي خطوها عزة واختيال
تمد يديها وتثنيـــــــهما ... وترتد في عوج واعتدال
كحورية النبع تطوى الرشاء ... وتجذب ممتلئات السجال
محيرة الطيف في مائج ... من النور يغمرها حيث جال
على إصبعي قدم ألهمت ... هبوب الصبا ووثوب الغزال
وتجرى ذراعين منسابتين ... كفرعين من جدول في انثيال
كأنهما حولها ترسمان ... تقاطيع جسم فريد المثال
تلّوى وتلهو كذُّهَابة ... تراقص قبل غناء الذبال
وتعلو وتهبط مثل الشراع ... ترامى الجنوب به والشمال
وتعدو كأن يدا خلفها ... تعذبها بسياط طوال
وتزحف رافعة وجهها ... ضراعة مستغفر في ابتهال
وتسقط عانية للجبين ... كقمرية وقعت في الحبال[١]

والراقصة في اندفاعها في تمثيل هذا الدور لا تحس الواقع حولها وما يعتلج في صدور النظارة من نهم ورغبة .

---

(١) زهر وخمر .

فليست تحس اشتهاء النفوس   وليست تحس عيون الرجال

لكن الشاعر وسط هذا الواقع وفى هذا المشهد الحسى يرى بعين خياله ويعتقد أن لهذه الراقصة رسالة روحية سامية فيقول لنا :

وليست ترى غير معـــبودها   على عرشه العبقـرى الجلال
دعاها الهــوى عنـده للمثول   وما الفن إلا هـــوى وامتثال
وفى روحها نشـــــوة حــلوة   كمهجورة منيـــت بالوصال

ومع هذا فالشاعر يلح فى هذه الواقعية الجديدة ويلقى بروحه فى أُتونها ويجد لذة فى استجلاء صورها فتراه يقول فى قصيدته « الحية الخالدة » [1] واصفا هذا اللقاء الجسدى العارم :

ولفت ذراعيـــــن كالحيتين   على وبى نشـــــوة لم تطرْ
وقد قربت فمــــها من فمى   كشقين من قبـــس مستعر
أشـــم بأنفاســـــــها رغبة   ويهتف بى جفنـها المنكسر
تبينت فى صدرها مصرعى   وآخـــرة العاشـــق المنـــتحر

* * *

هو الحب ؟ لا . . بل نـداء الحياة   تلبيه أجســــــــــادنا الظامئة
يخف دمى لصــــــــداه الحبيب   وتدفعــــــــــنى القدرة الهازئة

لكنه بعد هذا الاندفاع نحو الواقعية ونحو النهل من اللذات يحس اغترابا عن بيئته الحقيقية وتنكراً لطبعه الأصيل ويستشعر ندما بعد أن تأثم فنه حين عب من الخمر وتعذب شعوره حين اقترب من النار فيصبح :

أخمر ونار ؟ لقد ضـــاق بى   كيانى وأوشك أن أختنق
أرى ما أرى ؟ لهبا ؟ بل أشم   رائحة الجســـد المحترق !!

لقد كانت رحلاته إلى أوربا نقطة تحول فى اتجاهه الشعرى لا شك

---

(١) أرواح وأشباح .

وبدء لإيغاله في الواقعية الفنية التي انتهجها في الفترة الأخيرة من حياته إلا أنه كثيرا ما يغلبه الطبع الأصيل فيرتد شاعرا رومانسيا في الكثير كما تجهده محاولة استحداث الاتجاه الواقعي فيأتينا بشعر تغلب عليه روح الصنعة والتهافت كقوله يحدث زهرات هيأها في بيته وكان على موعد مع فاتنة أخلفته :

طال انتظاري ومضـــي موعدي   وأنت مثلي ترقبين المساء[1]
كم لك عندي في الهوى من يد   يا زهراتي أنـــت رمز الوفاء

* * *

عما قليل سوف تلقينه   أجمل ما تصبو إليه العيون
يطرق بابي معلـــنا أنه   كل اصطبار في هـواه يهون

أو كقوله :

تسائلني حلـوة المبســـم   متى أنت قبلتني في فمي ؟[2]
تحدثت عــني وعـــن قبلة   فيا لك من كاذب ملهـــــــم
فقلت أعابثها : بل نسيت   وفي الثغر كانت وفي المعصـم
سلي شفتيك بما حســـتاه   من شفـــتي شـــاعر مغـــــرم

شاعريته

حدثني الأستاذ عبد الحميد طه شقيق الشاعر[3] بأنه بدأ يقرض الشعر وهو دون السادسة عشر من عمره ونشـــــرت أولى قصـــائده في « السفور » عام ١٩١٨ أي وهو دون السابعة عشر وقد أخذ عليه الأستاذ الزيات حينئذ ما جاء في القصيدة من هنّات لغوية ونصحه بأن يرفد قريحته بمادة اللغة وآلة الفن ولعل هذه الأخطاء اللغوية هي أهم ما عابه النقاد من شعر على طه ولقد كان مرجعها ولا ريب بعد ثقافته بعداً كبيرا عما ينمي فيه هذه المادة فهو قد تعلم تعليما صناعيا فنيا لا تعليما أدبيا لكنه رغم

(١ ، ٢) زهر وخمر .
(٣) مدير الثروة الصناعية بمصلحة الفلاح .

ذلك قد استجاب لنصيحة الزيات حتى إن شعره الأخير قد انعدمت فيه هذه الأخطاء التى لا تنتقص من شاعريته .

وَشعْرُ الشاعر مرآة تنعكس فيها نفسه الصافية ذات الطباع الهادئة والخصال اللينة التى تنأى عن العنف حتى فى الوقت الذى يجمل فيه العنف والثورة .. ولتتأمل معى هذه الآبيات :

أخى ! جاوز الظالمون المدى	فحق الجهاد وحق الفدا
أنتركهم بغصبون العروبة	مجد الأبوة والسؤددا
وليس بغير صليل السيوف	يجيبون صوتا لنا أو صدى
فجرد حسامك من غمده	فليس له بعد أن يغمدا
أخى أيها العربى الأبى	أرى اليوم موعدنا لا الغدا

إنها لحظة حاسمة فى تاريخ العروبة تلك هى حرب فلسطين ومع خطورة الموقف وما يتطلبه من ثورة عنيفة جارفة تهز المشاعر وتستنهض الهمم والعواطف نرى على طه يدعو العرب إلى الثورة لكنها دعوة رقيقة تحاج العقل والمنطق وتدعوهم إلى القتال لأن الأعداء لن يستجيبوا إلا لصوت السيوف ولا يصح أن نتركهم يغتصبون مجدنا وديارنا .

يقول الأستاذ أنور المعداوى صديق الشاعر الحميم يصفه « لقد كان على طه[١] واحدا من هؤلاء الذين يفتحون القلب على مصراعيه أمام المخلص من الأصدقاء حتى ليخيل إلى من يعرفه منذ شهور أنه يعرفه منذ أعوام وأعوام ، كان واضحا فى فرحه كما كان واضحا فى حزنه وكان واضحا فى سره كما كان واضحا فى جهره حتى لو أنه حاول أن يصمت لكان صمته فنا من الكلام أو حاول أن يكتم لكان كتمانه ضربا من البوح والإفضاء . ومن هنا كانت حياته على لسانه سلسلة من الأحاديث وكانت فى شعره سلسلة من الاعترافات .. واستمع إلى هذا الاعتراف من كتابه

---

(١) العدد ١٦٨ من الرسالة .

(شرق وغرب) وهو حديث ينبع من قلب أبيض كزهرة الحقل البيضاء : •

إن أكن قد شربت نخب كثـ ـيرات وأترعت بالمدامة كأسى
وتولعت بالحسان لأنى مغرم بالجمال من كل جنس
وتوحدت فى الهوى ثم أشركـ ـت على حالتى رجاء ويأس
وتبذلت فى غرامى فلم أحبـ ـس على لذة شياطين رجسى
فبروحى أعيش فى عالم الفـ ـن طليقًا والطهر يملأ حسى
تائها فى بحاره لست أدرى لم أزجى الشراع أو فيم أرسى
لى قلب كزهرة الحقل بيضـ ـاء نمتها السماء من كل قبس
هو قيثارتى عليها أغنى وعليها وحدى أغنى لنفسى
لى إليها فى خلوتى همسات أنطقتها بكل رائع جرس

* * *

كم شفاه بهن من قبلاتى وهج النار فى عواصف خرس
ووساد جرت به عبراتى ضحك يومى منه وإطراق أمسى
أيهذى الخدور أنوارك الحمـ ـراء كم أشعلت ليالى أنسى
أحرقتهن ! آه لم يبق منهـ ـن سوى ذلك الرماد برأسى

هذا شعر صادق كل الصدق وأصدقه ذلك الوساد الذى جرت به العبرات . . ولابد لك من أن تقف معنا طويلا عند هذا البيت من هذه القصيدة الاعترافية لأن فيه مفتاحا رئيسيا يفصل بين فترتين من حياة الشاعر فترة تحفل بالدموع وفترة تعج بالبسمات الأولى فترة الأمس وما قبل الثلاثين والثانية فترة اليوم أو ما بعد الثلاثين . . وها هو ذا يعترف بأن يومه يضحك لمنظر العبرات فى حين يأسى لها الأمس ذلك الأسى المعبر عنه بالإطراق » .

وكما أن شعر الشاعر مرآة تنعكس فيها صورة نفسه كذلك نفس

الشاعر الحساسة مرآة تنعكس فيها صور بيئته ويتردد في جوانحها صدى أحداث عصره ولذا نرى على طه يسجل الفترات الوطنية فى تاريخ أمته وقد عاصر ثورة سنة ١٩١٩ التى اشتعلت وهو فى فجر شبابه ومقتبل العمر وكانت له فيها جولات من الشعر موفقة ولقد ظل ينبه المصريين بل والعرب بل والشرقيين عامة ويدعوهم للأخذ بأسباب القوة :

دعوها منـــى واتركوه خــيالا   فما يعرف الحـق إلا النضالا
بنى الشـــرق ماذا وراء الوعود   تطل يميـنا وترنو شمالا ؟؟
وما حكمة الصـمت فى عالم   تضج المطامــــع فيه اقتتالا
زمانكمو جــارح لا يــــصف   رأيت الضعيف بـه لا يوالى

ونرى الشاعر فى سنى الحرب العالمية الأخيرة وقد تحقق للعالم إلى أى جحيم تقوده هذه المدنية المادية ووقف حائرا يتلمس خلاصا من سعير المادة وأخذ يولى وجهه شطر روحانيات الهند والصين والشرق عامة ٠٠ نرى الشاعر ينبه فى مطلع العام الهجرى ١٣٦٢ إلى ما شرعه الإسلام من اغتراب وعذاب وصراع فى سبيل المبدأ الحق والعدل الإلهى ٠٠ ويدعو إلى النهج الإسلامى نهج الإخوة والمحبة :

كن بشير الحب والنور إلى   مهج كلمى وأكباد دوامى
صفحات من صراع خالد   ضمنت كل فخار ووسام
لم تتح يوما لجبار طغى   أو لباغ فاتك السيف عرام
بل لداع أعزل فى قومه   مستباح الدم مهدور الذمام
زلزل العالم من أقطاره   بقوى الروح على القوم الطغام
وبنى أول دنيا حرة   برئت من كل ظلم وآثام
تسع الناس على ألوانهم   لم تفرق بين آرى وسامى

حاطم الأصنام ! هل منا يد   تذر الظلم صديعا من حطام ؟
لم تطقها حجرا أو خشبا   ويطاق اليوم أصنام الأنام[1]

وفى الحرب أيضا حد الرقيب من حرية الصحافة والكتَّاب واختصرت أزمات التموين من حجم الصحف فضاقت بما لديها من مواد وأول ما اختصرته الشعر وقد عُدَّ من الكماليات فى تلك الفترة وقد عبر عن محنة الشعر وصورها تصويرا فكها لطيفا فى قصيدته « سمر »[2] :

يا وحى شعرى أين أنت   فى أى زاوية ركنت ؟
هل رحت فى إغماءة   أم بالمخدر قد حقنت ؟
أم نمت أم نام الزما   ن أم اعتقلت أم انسجنت ؟
أم خفت من قلم الرقيـ   ـب فما أشرت وما أبنت ؟
أم هل سقيت (كزوزة)   أم هل حسوت (البرمننت)[3]
أم قد شربت زجاجة   من صنع بار (الكونتننت) ؟[4]
أم فى البنوك لأزمة   حلَّت بأهلك قد رهنت ؟

وهو فى حرب فلسطين يسجل بطولة الجنود المصريين الذين حاصرهم الأعداء فى قرية الفلوجة عدة أشهر فصمدوا للحصار ولم يهنوا ولم يستسلموا فاستحقوا من الشاعر التحية :

هاتوا حديث الحرب كيف تطاحنت   لكمــو منازعها وهان عصيها
فى قرية محصـــورة كسفـــينة   فى لجة هاجت وماج غضـــوبها
لم تدر فيها الريـــح أين قرارها ؟   والشمس أين شروقها وغروبها ؟

ولقد كان لحديث الحرب المتصل أثر فى نفس الشـــاعر وخياله الذى

(١ ، ٢) زهر وخمر .
(٣) شراب البيرمنت .
(٤) فندق الكونتيننتال بالقاهرة .

جمح به وسبح فى تاريخ العروبة ينقب عن صورة من البطولة تبز ما تناقله الناس فى الحرب العالمية الأخيرة من أحاديث موانىء الغزو وفرق الفدائيين « الكوماندو » فلم يجد أروع من غزوة طارق بن زياد للأندلس التى قام بها من ميناء طنجة فى إفريقيا فى أسطول يقل اثنى عشر ألف محارب منذ أكثر من ألف ومائتى عام وسار به إلى الصخرة الشماء التى نزل بها وسميت باسمه وحقق فى غزوته نصرا عظيماً فى أغنى وأجمل وأقوى بقاع القارة الأوربية بعد أن حطم أسطوله ليوجد رجاله بين أمرين أحلاهما قتال العدو :

أشباح جن فوق صدر الماء ... تهفو بأجنحة من الظلماء ؟[1]
أم تلك عقبان السماء وثبن من ... قنن الجبال على الخصم النائى ؟
لا بل سفين لحن تحت لواء ... لمن السفين ترى وأى لواء ؟
والشرق من بعد حقيقة عُالم ... والغرب من قرب خياله رائى ؟
ضحكت بصفحته المنى وتراقصت ... أطياف هــــذى الجنة الخضراء
ووثبت فوق صخورها وتلمست ... كفاك قلـــــبا ثائر الأهواء
فكأنما لك فى ذراها موعد ... ضربته أندلـــــسية للقاء
ووقفت والفتيان حولك وانبرت ... لك صيـــحة مرهوبة الأصداء
هذى الجزيرة إن جهلتم أمرها ... أنتم بها رهط من الغـــرباء
البحر خلفى والعدو إزائى ... ضاع الطريق إلى السفين ورائى
وتلفتوا فإذا الخضم سحابة ... حمراء مطــبقة على الأرجاء
قد أحرق الربان كل سفينة ... من خلفه إلا شـــراع رجاء
وأتى النهار وسار فيه طارق ... يبنى لملك الشـــرق أى بناء

---

(١) زهر وخمر .

ومهما تكن المناسبة التى يتحدث عنها الشاعر فإنه لا يتحدث إلا عن شعور صادق وإحساس عميق بخطورة هذه المناسبة وأهميتها من وجهة نظره ولذا ندر فى شعر على طه المديح ولم يمدح إلا من استحق فى نظره المديح وكان له فى قلبه مكانة ومحبة فكان مديحه له آية من آيات الفن الرفيع ... ومن أمثلة هذا المديح قصيدته « الشاعر » التى قالها فى صديقه الشاعر الدكتور إبراهيم ناجى نقتطف منها هذه الأبيات :

عبقرى من النغم رجعه الحب والألم[1]
نبعه قلب شاعر شارف النور فى القمم
ورأى مولد الحيا ة على شاطىء العدم
ذوب الحب قلبه وبرى جسمه السقم
وجلا الغيب سره بين عينيه وارتسم
فانظروا أى شاعر هو فى الحقل بينكم
ذلك المبدع الروائع فى صورة الكلم
فاسمعوا الآن شعره وتملوه عـــن أمم
ضامر الجسم واسمه يسع الكون بالعظم
وقصير ومجـــده باذج كالضحى أشم
ذلك الشاعر الذى فاز بالحب واتســم
خالد بالذى شـــدا خالد بالذى نظم
ذاك ناجى وحسبه أنه الشاعر العلم

كما أن شعر على طه يمتاز بخاصية التنسيق التى تنبعث من مزاجه كمهندس يضع تصميم المبنى أولا ثم يشرف على تنفيذه فى حدود هذا

(١) زهر وخمر .

التصميم فتأتى الصورة الشعرية فى نسق هندسى محدد المعالم والأهداف وكأنها تسير على أبعاد وزوايا هندسية رائعة لا تحيد عنها ولذلك قلما تجد فى صوره الشعرية ما ينبو عن الذوق أو يصدم البصر .. وإليك الغروب كما يصوره وقد توارى النهار خلف ستار من الغمام المخضب بلون الشفق الأحمر فعم الاحمرار المنعكس على الغمام الأفق فبدت الطيور فى السماء وهى متجهة إلى أوكارها كما لو كانت تسبح فى لجة من عقيق .. تلك لوحة فنية كاملة بجميع أبعادها وألوانها يقدمها لنا الشاعر المهندس :

أقبل الليــــل واتخـــذت طريقى ... لك والنجــم مؤنسى ورفيقى
وتـــوارى النهـــار خلـــف ستار ... شفقى من الغـــــمام رقيق
مد طيـــر المســاء فيــه جناحا ... كشراع فى لجـــــة من عقيق
هو مثلى حيران يضرب فى الليـ ... ـل ويجتاز كل واد ســـحيق
عاد من رحلـــة الحيـــاة كما عد ... ت وكل لوكــــــره فى طريق

ولا تمتاز هذه الصورة بالتنسيق فحسب بل والأصالة الشعرية لأن على طه سما بشعره عن التقليد والمحاكاة واتجه إلى مشاعره وخواطره يبرزها للناس إبرازا يتسم بالبساطة وصدق الأداء .

ولقد كان لعلى طه رقة فى الشعور مفرطة ووجدانا مرهفا سريع التأثر بما يقع من أحداث له أوللناس .. فيأسى ويحزن ويشتد أساه لو صادف فى طريق الحياة بائسا أو توهم أن إنسانا ما ممن يلقـــاهم يعانى ألما أو شدة .. ففى ذات مرة علم أن رئيسة الفرقة الموسيقية فى أحد مطاعم القاهرة التى كان يتردد عليها عمياء فحز فى نفسه ذلك العلم وأمضه وأوهمه أنها شقية بفقد بصرها وتستحق رثاء وعطف الشاعر كثيرا فذهب يصور ما تعانيه فى قصيدته « الموسيقية العمياء » التى تواصل بكاء خطبها .. ويأخذ هو بيدها ليريها مواضع الجمال فى الكون التى تستطيع إن تستمتع بها بلمسها بيديها دون حاجة للنظـــر ويدعو الأقــــدار للرفق

بها والطبيعة والكون كله لمواساتها ويبكى هو قبل كل شيء لهذا الخطب الفادح :

إذا ما طاف بالأرض   شعاع الكوكب الفضى[1]
إذا ما أنَّت الريح   وجاش البرق بالومض
إذا ما فتح الفجر   عيون النرجس الغض
بكيْت لزهرة تبكى   بدمع غير مرفض

* * *

زواها الدهر لم تسعد   من الإشراق باللمح
على جفنين ظمآنيـ   ـن للأنداء والصبح
أمهد النور ما الليل قد   لفك فى جنح ؟
أضىء فى خاطر الدنيا   ووار سناك فى جرحى

* * *

أرى الأقدار يا حسناء مثوى جرحك الدامى
أريها موضع السهم الذى سدده الرامى
أنيلى مشرق الإصباح هذا الكوكب الظامى
دعيه يرشف الأنوار من ينبوعها السامى

* * *

وخلى أدمع الفجر   تقبل مغرب الشمس
ولا تبكى على يومك   أو تأسى على الأمس
إليك الكون فاشتفى   جمال الكون باللمس

---

(١) زهر وخمر .

خذى الأزهار فى كفيك فالأشواك فى نفسى

* * *

ومن آدمك المحبوب ؟ أو ما صورة الصب ؟
لقد ألهمت والإلها م ياحواء بالقلب
هو القلب هو الحب و ما الدنيا لدى الحب
سوى المكشوفة الأسـ ـرار والمهتوكة الحجب

* * *

سلى القيثار بيـ ـن يديك أى ملاحن غنى
وأى صبابة سالت على أوتاره لحنا
حوى الآمال والآ لام والفرحة والحزنا
حوى الآباد والأكـ ـوان فى لفظ وفى معنى

بل إن الشاعر أبصر ذات فجر جديد فتاة تسير فى الطريق بجوار بيته تتلفت خشية أن يراها رقيب فخيل إليه أنها بائسة من نساء الهوى أو فتاة عاثرة الحظ فى حبها فهم أن يسعى إليها ليخفف عنها آلامها الموهومة وذهب يصور قصتها شعرا رائعا فى قصيدته « سارية الفجر » :

عبرت بى فى صباح باكر فتنة العين وشغل الخاطر(١)
وبعينيها رؤى حـــائرة بين أسرار مســـاء غابر
صورت من حاضر العيش ومن أمسها قصـــة حب عاثر
من تراها ؟ وإلى أين ؟ ومن أى خدر طلـــعت أو سامر ؟
تقطع الإفريز من ناحيتى كأسير هارب من آسر
تتقى الأعين أن تبصرها وهى لا تألو التفات الحائر
لا تبالى بَلَلَ الثوب ولا لفحة البرد الشفيف الثائر

(١) زهر وخمر .

أو تبالى قدماها خاضتا مسرب الماء الدفوق الهامر
أنت يا سارية الفجر اسمعى دعوة الروح البرىء الطاهر
وأنا الشاعر قلبى رحمة لفريسات القضاء الجائر
إن نأت دارك يا أخت فما بعدت دار الغريب العابر

إن قلب على طه الكبير حملّه أكثر مما يحتمل وجعله يعتقد أنه مسئول عن كل بائس أو محزون بل إن نزعته الإنسانية تتعدى بيئته المحدودة لتشمل العالم كله ببرها ورحمتها .. ولقد بلغ الذروة فى قصيدته « ليلة عيد الميلاد »[1] التى كشف فيها عن الناحية الإنسانية العالمية فى نفسه وأبرزها كتابا مفتوحا للناس يدعوهم إلى السلم بعد أن ذاقوا من ويلات الحرب العالمية الأخيرة صنوفا وألوانا .

إنها ليلة الميلاد فليذكّر الشاعر الناس بتعاليم المسيح عليه السلام التى سداها الرحمة ولحمتها العطف والتسامح مع الباغى والمعتدى والمسىء .. إنه يسأل السيد المسيح الرجعة إلى الأرض ليعيد على القوم وصاياه . وأخص هذه الوصايا المحبة والإخاء .

وفى القصيدة فوق ذلك تصوير دقيق رائع لبيئة الحرب المقبضة وما استحدثته أساليبها من ظلام شامل فى المدن وعكوف فى الخنادق فى انتظار الموت من السماء أو الأرض .. وأخيرا لماذا القتال ؟ وعلام يقتل الإنسان أخاه الإنسان ؟ إنها خدعة كبرى لحساب الزعماء .. ؟ :

اسمعى ايتها الروح ! أفى الكون غناءُ ؟
وانظرى ! ... هل فى نواحى الأرض بالليل ضياءُ ؟
لا تراعى إن يكن قصّر عنك البشراء
فالنواقيس التى حيتك أشجاها القضاء

---

(١) زهر وخمر .

الشجى رجع صـــــداها والأســى والبرحاء
والتراتيـــــل من البيعـــة نـــــوح وبكاء
رددتهن الثكالــــى واليتامــــى الشهداء
والمصابيح التــــــى كان بـــها يزهى المساء
خنقتها قبضة الشـــر فمــــــا فيها ذماء
صبغوها بســــواد فهـــــى والليل سواء
مأتم للنور قام الويــــل فيـــــه والشقاء
تحت ليل ماله بـــــدءا ولا منـــــه انتهاء
أيها المبعوث ،لا ضنَّت برجعـــاك السماء
انظر الأرض .. فهل فى الأرض حب وإخاء
نسى القـــوم وصـــاياك وضلوا وأساءوا !
وكما باعـــوك يا منقـــذ بيع الأبرياء !!

* * *

ليلة الميلاد ، والدنيــــا دمـــــوع ودماء
فى ربوع كان فيها لك بالســــلم ازدهاء
باسمه يشدو المغنــــون ويشدو الشعراء
أين ولت هذه الفرحـــة ؟ أم أين الصفاء ؟
لم تصافحك من الأطفـــال أحـــلام وضاء
رقدوا غير عيون قد ريع منهـــــن الفضاء
ترقب الآباء هل عادوا ؟ وهـــل حان اللقاء
بين أيدى أمهـــــات بتــن والليـــل جفاء

في طوايا النفس يبكين وقد عز الرجاء
ويحهم أين تراهم ، هؤلاء الأشقياء ؟
هم وراء الليل أجساد وأرواح هباء
ووجوه رسم الرعب عليها ما يشاء
خندقوا فى مأزق الموت وما منه نجاء
بين موج من سعير يتوقاه الفناء
وجبال من ركام الثلج يرسيها الشتاء
وحديد طائر يحذر مسراه الهواء
وعجيب ! فيم للموت يساق التعساء ؟
في سبيل الخبز ؟ والخبز اكتساب ورضاء ..
فى سبيل الحق ؟ والحق لدى القوم طلاء..
فى سبيل المجد ؟ والمجد من البغى براء ..
أوفى الجزرة الكبرى تنال المجد شاء ؟
كذب الباغى وللسيف بكفيه مضاء
وخداع كل ما قال ، وزور وافتراء ..[1]

هذه الرقة المتناهية والشعور السامى النبيل قد زادتهما الموسيقى عمقا وتأصلا فى قلب على طه الذى شغف بالموسيقى طول حياته وأجادها وكان من العازفين الماهرين على البيان وطالما أحيا الحفلات فى داره يعزف لضيوفه .. كما كان هو حريصاً على حضور حفلات الموسيقى وارتياد أماكن عزفها وكان يحب تناول العشاء غالبا فى مطعم به فرقة موسيقية .

ولم يكن هذا عجيبا من على طه لأن من كان فى مثل شاعريته

(١) زهر وخمر .

ومزاجه يستطيع تذوق الموسيقى وتفهمها وهى لغة العاطفة العالمية التى يتخاطب بها العالم أجمع دون وساطة أو ترجمان .

وللطبيعة موسيقاها بل كل ما فيها أنغام متفرقة من لحن كبير تتردد أنغامه على قيثارة على طه فتشيع فيها قوة ويضفى هو عليها من قلبه روحا فتتحرر من جمودها وتنبض بالحياة وتصبح خليقة بنجوى الشاعر وصحبته بل وبأن تكون له معهداً وأستاذا :

معهدى هذه المروج وأستاذى ربيع الطبيعة الفينانة

وفى بحيرة « كومو » يقول :

ها هنا يشعر الجماد ويوحى لمن شعر

أجل لأن الطبيعة كلها حياة وحركة وهى تتأنق لمرتاديها .. فهى تارة تتنقب بالغمام وطورا تسفر لمطلع القمر أو هى تلبس حلة السهر وهى تغرى الناس وتشجعهم بالقبل :

البحيرات والجبال قـ ـد توشحن بالشجر
وتنقبن بالغـمـا م وأسفرن بالقمر
والبرونات غـادة لبست حلة السهر
نثرت فوقها الديا ركما ينثر الزهر
وعبرنا رحابها فأشارت لمن عبر
هاكها قبلة فمن رام فليركب الخطر

بل إن على طه يبدأ قصائده بالحديث عن الطبيعة بدلا من النسيب الذى كان المتقدمون يستهلون به قصائدهم .. لأنها هى الرفيق الوفى الذى يستجيب أبدا لندائه فتراه فى قصيدته « الموسيقية العمياء » يستهلها بقوله :

إذا ما طاف بالأرض شعاع الكوكب الفضى
إذا ما أنَّت الريح وجاش البرق بالومض

إذا ما فتح الفجـــر عيون النرجس الغض
بكيت لزهرة تبكى بدمع غيـــــر مرفض

الغزل فى شعره

سألت شقيق الفقيد الأستاذ عبد الحميد طه عن مكانة المرأة فى حياته فكتب إلى يقول (كان ينفر من الزواج وإن كان فكر فيه مرارا لأنه يعتبره كقيد قد يحد من هويته وعبقريته وحريته فعاش حياته الدنيا كالطائر الطليق يحلق فى أجواء الطبيعة ويستشف أسرارها ومكنوناتها يتمتع بأطايبها حتى إذا ارتوت نفسه أخرجها ألحانا وسحراً) .

ولم أجد أى دليل على أن عليا قد أحب الحب العنيف الذى يبتغيه الشاعر لذاته وللذعاته الموحية أو هذا الحب العفيف الذى يهدف إلى رباط مقدس بل كل ما علمت أنه خطب ابنة عم له ماتت، قبل أن يقترن بها وليس لها فى شعره أثــر ولـعل هـذه الخطـبة تمت وفق تقاليد البيئة حينئذ .. أى خطبة رسمية يقوم بها سيدات الأسرة ولا دخل للزوجين بأمورها فكان طبيعيا ألا يتأثر على طه بشخصية خطيبته تلك وألا تؤثر فى شعره .

وكل ما عرفته عن علاقاته الغرامية أنه كان على صلة لفترة ما بإحدى المطربات اللائى اشتغلن بالسينما المصرية كما أنه استقدم معه فى إحدى رحلاته إحدى بنات الهوى من أوربا ولا أظن أن مثل هذه العلاقات كانت تروى روح الفقيد الظامئة إلى الحب .

إنى أعتقد أن عليا لم يلق فى حياته المرأة التى تملأ فراغ قلبه وتشغفه حبا فيعشقها العشق العنيف ويسعى إليها سعيا حثيثا ويطلب الاقتران منها وكانت البيئة هى العامل الأول فى هذا إذ استشعر فيها الحرمان ورأى فيها الحجب المضروبة بينه وبين المرأة فانصرف عنها وظل يروض نفسه على هذا الحرمان المقيت حتى إذا ما تخطى الثلاثين انطلق ينهل من اللذات

وضاعفت رحلاته إلى أوربا من سعاره المادى فلم يعد يرى فى المرأة إلا جسدا ولذة وحتى عندما يحاول أن يتسامى فى شعره عن هذه المادية تجذبه متع الجسد إليها فيهوى من سمائه يتلمس هذه اللذة . . . » .

يا حبيبى أقبل الليل ونادانى الغرام[١]
أى سر لمحب لم يصوره الظلام
كل نجمة مهجة تهفو وعين لا تنام
وشعاع البدر معشوق به جن الغمام
يا حبيبى كل عيش ما خلا الحب حرام
وحرام يا حبيبى
يا حبيبى سئم الليل سكوتى واكتئابى
أنا أهواك ولكن أنت لا تعلم ما بى
لحظة بين ذراعيك فقد طال عذابى
لحظة أمزج أنفاسك بالقلب المذاب
وأغنى ويغنى لك حبى وشبابى
وسلام يا حبيبى

لكنه عند بحيرة كومو لا يرى فى صاحبته إلا كل ما يثير فى نفسه الرغبة الجامحة وإلا نداء صارخا للمتعة :

نحن روحان عاصفا ن وجسمان من سقر
فاعذرى الروح إن طغى واعذرى الجسم إن ثار
نضبت خمر بابل وهوى الكأس وانكسر
وهنا كرمة الخلو د فطوبى لمن عصر

(١) زهر وخمر .

غيم والنبـــع دافق يشتكى الظامىء الصدر ؟
ولمن هذه العيـــون تغمرن بالحـــور ؟
ولمن توشـــك الندى وثبة الطير فى السحر ؟
كل إلف لإلـــفـــه هم بالصـــدر وابتدر
عض فى الثوب واشتكى وطأة الخـــز والوبر
ســـمة الطائر المعذ ب فى قيـــده نقر
ولمـــن رفت المبا سم واســـترسل الشعر ؟
ثمر ناضـــج الجنى كيف لا نقطف الثمر
ما أبى الخـــلد آدم أو غوى فيه أو عثر

وفى شاطىء لوسرن بسويسرا يتحدث عن صديقته فى هذا الحوار الشعرى الجميل معترفا بأن الحرمان هو سر سورته العاطفية المشبوبة :

قلت لى والحياء يصبغ خديك . أنار تمشى بها أم دماء ؟(١)
ملء عينيك بافتى الشرق أحلام سكارى وصبوة واشتهاء
أو حقا دنياك زهر وخمر وغوان فواتن وغناء ؟

* * *

قلت يا فتنة الصبا حفلت دنياك بالحب والمنى والأغانى
ما أثارت حرارة الجسد المشتاق إلا مرارة الحرمان
إن أجسادنا معابر أرواح إلى كل رائع فتّان
أنا أهوى روحية العالم المنظور ولكن بالجسم والوجدان

* * *

---

(١) حب وحرب .

ما تكون الحياة لو أنكر الأحياء فيها طابع الأشياء
أنا أهواك كالفراشة صاغتها زهور الثرى وكف الضياء
أنا أهواك فتنة صاغها المثال من طينة ومن إغراء

* * *

أنا أهواك من آثام وطهر حلم إغفاءتي وصحو غرامي
أنا أهواك دفء قلبي وينبوع اشتهائي وشوقي وغرامي
وحنانا مجسدا إن طواني الليل وسدت صدره آلامي

* * *

وتلاقت عيوننا فتدانت لي — وجن الحنـــان في شفتينا
فاعتنقنا في قبلة قد أذابت — جسـدينا ومازجت روحينا

وتبلغ سورته الذروة فلا يرى في ملك الثرى ودنيا الشباب وعمر الزمان ورحيق الجنان ما يساوي لحظة في أحضان حواء :

إذا قيل لي : هاك ملك الثرى — ودنيا الشباب وعمـر الزمان(١)
فما لذتـــي بالـــذي نلته — وما نشوتي برحيـــق الجنان
كرعشة روحــــي وهـزّاتها — وصدري على صدرها واليدان

لكن علي طه يحس وسط هذه النشوة صحوة للضمير تؤنبه على الإغراق فيها فيعتذر عن ذلك بأن الغرائز العاتية ، قد سلطت على قلب الشاعر لتعذبه أبدا :

قلـــوب تلذ بتعذيبـــها — غرائز عاتيـــــة عارمة
ترنّحها سكرات الهـــوى — وتوقظها الفـتن النائمة
صحت من خمار ملذاتها — تعنف أهوائهـــا الآثمة

---

(١) أرواح وأشباح .

أغانيه

إن أغانى على طه تسلكه فى عداد كبار الشعراء وفى مقدمة الشعراء المعاصرين لما ظفرت به من نجاح عظيم مرجعه ما امتازت به من سهولة التراكيب وعذوبتها وموسيقيتها ولما اتسمت به من طابع حزين يوائم البيئة .. مثل هذه الأسطر من أغنيته المشهورة « الجندول » :

أين من عينى هاتيك المجالى　　يا عروس البحر يا حلم الخيال
أين عشاقك سمار الليالى　　أين من واديك يا مهد الجمال
موكب الغيد وعيد الكرنفال　　وسرى الجندول فى عرض القنال

* * *

....
....
أنا من ضيع فى الأوهام عمره
نسى التاريخ أو أنسى ذكره
غير يوم لم يعد يذكر غيره
يوم أن قابلته أول مره

إن الموسيقار(١) الذى لحنها موسيقار حزين النغم دائما يشارك على طه فى الاستجابة لمزاج البيئة وقد وضع ألحان أغنية أخرى لعلى طه « كليوبتره »وهى صورة خيالية لحلم جميل لليلة من ليالى الملكة العظيمة :

حلم عذراء دعاها حبها ذات مساء
فتغنت بشراع من خيال الشعراء
يا حبيبى هذه ليلة حبى
آه لو شاركتنى أفراح قلبى !

---

(١) الأستاذ / محمد عبد الوهاب .

يا ضفاف النيل بالله ويا خضر الروابى
هل رأيتن على النهر فتى غض الاهاب
أسمر الجبهة كالخمرة فى النور المذاب
سابحا فى زورق من صنع أحلام الشباب ؟
إن يكن مر وحيًّا من بعيد أو قريب
فصفيه وأعيدى وصفه فهو حبيبى
يا حبيبى هذه ليلة حبى !
آه لو شاركتنى أفراح قلبى !(١)

كما تمتاز هذه الأغانى بالرقة المفرطة فاستمع إليه فى قصيدته « عاشقة » يعرض شكاتها على لسانها فى رقة تهز أوتار القلوب :

يا حبيبى غنت الفرحة فى كل مكان(٢)
فهنا البلبل يشدو وهناك العاشقان
غير أنى أشتكى الوحشة فى ظل التدانى
إنما روحك فى الكون وروحى توأمان
لا تدعنى أقطع الأيام وحدى وأعانى
فحرام يا حبيبى

وعلى طه بعد ذلك يقدم للناس فى هذه الأغانى صورا عصرية مما يعرفونه ويشاهدونه ويفهمون مراميه ويتذوقون حلاوته ويتمنون الظفر بها :

إذا ارتقى البدر صفحة النهر
وضمنا فيه زورق يجرى

(١ ، ٢) زهر وخمر .

وداعبت نســــــمة من العطر
على محياك خصــــــلة الشعر
حسوتها قبلـــــــة من الخمر
جن جنـــــونى لها وما أدرى
أى معانى الفنـــــون والسحر
ثغرك أوحى بهـــــا إلى ثغرى

* * *

أعماله

كان على طه شاعرا مقلا لكن القليل الذى قاله إذا وزن بميزان الشعر رجح الكثير مما قاله غيره .

وقد عنى على طه فى نشر دواوينه بطبعها طبعا أنيقا وإخراجها إخراجا فنيا رائعا من حيث تنسيقها وتصويرها ومن الممكن ضم جميع أعماله فى مجلد واحد وأنى لأرجو أن يتحقق ذلك حتى يسهل على من يريد دراسته الإلمام به فى يسر وسهولة .

وما أرجوه ليس بدعا بل كثير من الشعراء جمعت أعمالهم فى كتب موحدة ومهما بلغت ضخامة أعمال على طه فلن تكون فى حجم أعمال شكسبير مثلا وقد ضمنها دفتى كتاب واحد .

لقد كتب على طه من دواوين الشعر :

١ – الملاح التائه .
٢ – ليالى الملاح التائه .
٣ – أرواح وأشباح .
٤ – زهر وخمر .
٥ – اغنية الرياح الأربع .
٦ – شرق وغرب .
٧ – الشوق العائد .
٨ – أرواح شاردة وهو يحتوى على نثر وشعر .

كما نشرت له دار النداء بعد وفاته كتاب « حب وحرب » وهو مجموعة من المقالات والقصائد والمقطوعات المترجمة التى نشرت بمجلة النداء .

والكثير من شعره ترجمه : المستشرق الأستاذ براكنبرى Pr : Branckenbury إلى الإنجليزية .

رحم الله على طه ذلك الشاعر الذى صور بيئته أصدق تصوير وعاش حياته كما رسمها فى شعره .. فى حيرة دائمة .

هو المرج الشارد المستهام   شرود الفراشة عند المساء

* * *

مراجع البحث :

١ – كتب الشاعر .

٢ – حديث الأربعاء : لمعالى طه حسين باشا .

٣ – وحى الرسالة : لأحمد حسن الزيات بك .

٤ – بحوث الأستاذ أنور المعداوى بمجلة الرسالة .

٥ – شوارد ما نشر عن الفقيد بالصحف عقب وفاته .

* * *

إبراهيم ناجى

إبراهيم ناجى الشاعر أو الدكتور ناجى الطبيب الذى جعل من صناعة الطب شعرا وفنا إنسانيا نبيلا ٠٠٠ أو الفيلسوف الصوفى ناجى الذى كان لا يرى الحياة إلا طريق خير وعطف وصلة محبة ومودة فعاش حياته للناس وكل ما وصلت إليه يده كان للناس مشاعا وترك لغيره الشقاء فى سبيل المادة وقنع لنفسه بالشقاء فى سبيل الناس ٠

ولد ذلك الرجل الفذ عام ١٨٩٨ فى أسرة متوسطة الحال ودرس فى المدارس المصرية ثم سافر إلى لندن حيث عكف على دراسة الطب والأدب عدة سنوات ثم عاد إلى مصر ليعمل طبيبا فى مصلحة السكة الحديد ثم فى مستشفيات وزارة الأوقاف إلى أن وصل إلى وظيفة مراقب القسم الطبى بتلك الوزارة وقد استقال من هذه الوظيفة قبل وفاته ببضعة أيام تحت تأثير ظروف خاصة ومضايقات فى العمل مما تأباه عليه نفسه وفى صباح اليوم الرابع والعشرين من مارس سنة ١٩٥٣ كان يزاول عمله الإنسانى فى عيادته يفحص مريضا ثم ينصرف إلى ورقة يدون فيها بعض ما يهجس فى نفسه من أحاسيس أو ما يجول فى خاطره من شعر ثم يطرق بابه مريض آخر فيقوم بفحصه لكنه يعود إلى مكتبه ويمسك القلم ليكتب له الدواء لكنه يسقط على مكتبه فاقد الحياة فلا يسعفه طبه ولا الأطباء ، كان والد ناجى رجلا مثقفا وكانت له مكتبة كبيرة فى بيته يغرى أولاده على الاطلاع على ما فيها وكان فيها من ألوان الأدب الانجليزى الشىء الكثير وكان الرجل يريد لابنه ثقافة واسعة ، ولأترك ناجى يحدثنا عما أراده أبوه وما أرادته مطالعاته وما أراده القدر ٠٠٠ يقول ناجى : « أراد أبى شيئا وأراد ديكنز شيئا وأراد كوبر فيلد شيئا وأراد القدر أشياء غير هذه !

فقد شاء أن أكون طبيبا وليس بالطب من حرج وإنما الحرج أن يكون الشعر مركبا فى طبيعة إنسان فإذا بالقدر يضعه فوق أسنة المادة ويزجه فى الدائرة التى لا شعر فيها ولا خيال أو إنما الحرج أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنَّات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنَّات الجسد وشتان بين هذه وتلك ! وإنما الحرج أن تجذبه طبيعته لناحية ومهنته لأخرى حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك » .

أرأيتم كيف أن ناجى أشفق على نفسه من مهنته الطب بل لقد خشى أن يأتى يوما ينسى فيه الشعر والأدب والفن وتجرفه مهنته المادية فلا يذكر شيئا عن عالم الروح لكن متى انتصر الإنسان على أقداره ؟ :

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء

كما قال أبو العلاء .

لقد تغلبت طبيعة الشاعر على مهنته فأحالتها رسالة للشعر فكان ناجى يمارس مهنة الطب فى كل مكان ... فى وظيفته وفى عيادته وفى الطريق وفى المقهى وفى مكان اللهو ... وكان يعود مرضاه الفقراء فى بيوتهم فى كل مكان من القاهرة ولا يأخذ منهم أجراً بل كان فى كثير من الأحيان يشترى لهم الدواء من ماله الخاص وهكذا فهم ناجى الطب أو أفهمته طبيعته أنه رسالة إنسانية عليه اداؤها كما يؤدى رسالة الشعر .

ولقد تأثر ناجى فى حياته بتوجيه والده أول ما تأثر وكان لذلك الوالد أعمق الأثر فى توجيهه وتنمية مواهبه الأدبية والشعرية لكثرة ما قرأ عليه من الأدب العربى والانجليزى حتى شغف ناجى بالمطالعة وأكثر منها لا سيَّما فى الشعر حتى أنه كان يحفظ الجزء الأول من (ديوان الخليل) عن ظهر قلب وكان لهذه المطالعات أثرها السريع فى نفسه فبدأ ينظم الشعر فى سن مبكرة ثم انضم إلى جماعة « أبوللو » التى أسسها الشاعر

أبو شادى وعلا نجمه فى سماء الشعر وظهر تفوقه ونبوغه ولا شك أن رحلته إلى إنجلترا أتاحت له فرصة أكبر ليغترف من بحار الأدب الإنجليزى وقد ظهرت آثار ذلك فى كل أعماله الأدبية سواء فى النثر أو الشعر وفى ميله إلى الغوص إلى أعماق النفس البشرية ليكشف عن العوامل الخفية التى تدفع الإنسان فى الحياة .

لكن ظل ناجى حياته يحس فى أعماقه بشخصيتين متناقضتين .. الطبيب والشاعر .. العالم والفنان وظلت هاتان الشخصيتان تتجاذبانه حتى مزقتا نفسه .

وتراه دائما حائرا بين طبيعتيه حيرة أورثته ألما محضا لا يجد له منه مهربا فيصرخ مستغيثا :

ليت شعرى أين منه مهربى   أين يمضى هارب من دمه ؟

ولا شك عندى فى أن ناجى ما اتجه إلى دراسة الفلسفة وما تعمق فى دراسة فرع علم النفس منها إلا بحثا وراء طريق يريحه من هذه الحيرة التى اكتنفت حياته فلم تدع له إلى راحة النفس من سبيل ... كشف له علم الطب والفلسفة عن حقائق كثيرة من حقائق الحياة وعاونتهما فى ذلك بصيرة الفنان النفاذة الناقدة ... لكن الحياة عندما كشفت عن بعضها لناجى جعلته يرتاع منها ويسىء الظن بنواياها حتى تمنى الجهل فقال :

كل شىء صار مرًّا فى فمى   بعد أن أصبحت بالدهر عليما

آه من يأخذ عمـــرى كله   ويعيد الطفل والجهـــل القديما

وطغت الفلسفة على حياة ناجى وصبغت كل شىء حتى صوره الشعرية فاستمع إليه فى قصيدته « الظمأ الكبير » التى يحاول فيها أن يعلل هذا الظمأ الذى يحسه ولا يجد له ريا لأنه لا رغبة له فى قدح الساقى بل فى روح الساقى :

قسما بسرك فى ضميرى | وجوى كمشبوب السعير
يامن أردت الرى لى | ما فى كؤوسك من مجير
من خمر أولها ظمئت | فما انتفاعى بالأخير
إنى عييت بصبوتى | وشقيت بالظمأ الكبير
من ذا يعين على الهجير | فكى القيود عن الأسير
لا نبع فى القفر السحيق | ولا نجاة على الغدير
شفتاك وعد غد | وأن غدا مديد كالدهور
خلى سرابك فيهما | ما فى سرابك من نصير
وحيى على لمحاته | بين القلائد والنحور
متألق الأمواج يغـــ | ـــرى بالمرافىء والثغور

* * *

خطر الهوى وخلوده | فى ذلك الحسن الخطير
فمن الصخور إلى العباب | ومن عبابك للصخور

* * *

يا مالكا حالى ويا | قدرى الخفى ويا مصيرى
لا بالسلاف ولا للكؤوس | ولا الند أبدا يا أميرى
إنى إلى الساقى ظمأى | وليس للماء النمير

ونراه أخيرا ينزع إلى نوع من التصوف ويحاول ألوانا من التجرد الروحى فيتنكر للماديات فى حياته ويعيش عيشة هى أقرب إلى حياة الزاهد وتشيع هذه الصبغة الصوفية فى شعره كله حتى إذا أنشد فى الغزل فهو أقرب إلى المتصوفة منه إلى روح العصر الذى يعيش فيه .. أسمعه يتحدث « إلى س ... » :

همست فى خاطرى فاستيقظت روحى الحيرى وأصغت لنداها
وأنا إن لم أكن توأمها فكأنى كنت فى الغيب أخاها
نحن أرواح حيارى ثملت وانتشت سكرى على لحن أساها
قربى روحك منى قربى ظلليني واغمريني برضاها
وتعالى حدثينى ! حدثينى ! أنت مرآة شجونى وصداها
فهبينى ساعة الصفو التى تقسم الأيام ما فيها سواها
ثم أمضى لحياة مرة صبحها عندى سواء ومساها

حتى فى ساعة اللهو تراه ينظر إلى الراقصة فلا يقنع بما يراه من لهوها بل يغوص فى نفسها ويبحث بين حنايا قلبها فلا يجد إلا آلاما من آلام الحياة فيتحدث عن هذا القلب فى قصيدة طويلة جاء فيها عن هذا القلب :

صبته فى كأس وما سكبت فيه سوى أنَّات مذبوح

ولقد أصبح ناجى فى يوم ملء الأسماع فى مصر والشرق وسمعت عنه الكثير الذى شاقنى إلى رؤيته حتى ساقته المقادير — منذ ستة أعوام — إلى أسيوط فى زيارة عابرة فالتقيت به فإذا أنا أمام رجل يفيض رقة وحياء وتواضعا حتى أنى لما هممت أن أحدثه عن نفسه وأثنى على بعض إنتاجه قال لى مبتسماً :

« يا أخى يقول النـاس على أنى بين الأطباء شاعر وبين الشعراء طبيب » .. فما رأيت تواضعا بلغ هذا الحد :

أما شاعريته فقد كانت قوية رائعة صافية كنفسه تفيض حيوية وإنسانية كقلبه فوسعت بيئته وأجادت التعبير عن كل ما وقعت عليه عيناه فى هذا الوجود وهو كثير .

وكان يصدر فى شعره عن إحساس قوى عميق بالحياة وإنك لتحس أنه يقتطع الصور من نفسه ويلونها بمداد من دمه حتى الطبيعة حين

يصورها تأتى صورها مختلطة بحالاته النفسية وآماله وآلامه فاستمع إليه يتحدث إلى البحر فى قصيدته « خواطر الغروب » :

قلت للبحر إذ وقفت مساء ... كم أطلتُ الوقوف والإصغاءَ
وجعلت النسيم زاداً لروحى ... وشربت الظلال والأضواء
إنما يفهم الشبيه شبيها ... أيها البحر نحن لسنا سواء
أنت عات ونحن حرب الليالى ... مزقتنا وصيرتنا هباء
أنت باق ونحن كالزبد الذى ... هب يعلو حينا ويمضى جفاء

أما إذا أنشد ناجى فى الغزل فهو إمام عصره فى هذا الفن بلا نزاع .. ولم لا وهو الذى تفتحت عيناء على الحب وظل حياته يلتمسه فى كل مكان ويعرض قلبه للهيبه المحرق ويحوم حول نيرانه اللافحة ويتلظى فى سعيره المشبوب .

فاستمع إلى أنَّات الحب الصادق ولهفة المحب وظمئه وخوفه وإشفاقه من أن يؤذى الحبيب بنيران حبه :

يا حنانا كيد الآسى الرءوم ... وشعاعا يُشْتَهى بعد الغيوم
أنا فى بعدك مفقود الهدى ... ضائع أعشو إلى نور كريم
أشترى الأحلام فى سوق المنى ... وأبيع العمر فى سوق الهموم
لا تقل لى فى غد موعدنا ... فالغد الموعود ناء كالنجوم
يا جنان الخلد قدمت اعتذارى ... إذ يطوف الخلد سقمى ودمارى
أيها الآمر فى ملك الهوى ... اعفُ عن لهفة روحى وأوارى
اشتهى ضمك حتى اشتفى ... فكأنى ظامىء آخذُ ثارى
غير أنى كلما امتدت يدى ... لعناق خفت أن تؤذيك نارى

وفى قصيدته (رجوع الغريب) تصوير رائع لتلك العواطف المتأججة فى صدره وقد أهاجها اللقاء بعد طول فراق كابد فيه ناجى من أهوال الحب :

عادت لطائرها الذى غناها وشدا فهاج حنينها وشجاها
أى الحظوظ أعادها لى فيِّها ونجىّ وحدتها وإلف صباها ؟
مشبوبة التحنان تكتم نارها عبثا وتخشى أن يبين لظاها !
يا إلفى المنشود سرك ذائع نار الحنين دفينها أفشاها !
فيم السؤال ؛ أما يدلك جارف من صبوتى جاز المدى وتناهى ؟
ودموع أشعار أثرْت نواحها وجمالك الوحى الذى أملاها ؟

أما الصبر الذى كان يحمل نفسه عليه حملا وهو المحب الموله الدنف فقد صوره أبدع تصوير وأعجبه فى قصيدته « الانتظار » التى تجتزىء منها بهذه الأبيات :

لعينيك احتملنا ما احتملنا وبالحرمان والذل ارتضينا
وهان إذا عطفت ولو خيالا وأين خيالك المعبود أينا ؟
تعال فلم يعد فى الحى سارٍ وهومت المنازل بعد وهنٍ !
وران على نوافذها ظلام وقد كانت تطل كألف عين !
ومنتظر بأبصارى وسمعى كما انتظرتك أيامى جميعا
وهل كان الهوى إلا انتظارا شتائى فيه ينتظر الربيعا ؟

ومن قصيدة له لم تنشر بعد أنقل إليكم بعض أبيات وكأنى به يخاطب بها حبًّا جديدا والقصيدة بعنوان « باقة ورد » :

أنت يا من جعلت روض حياتى   مهد ورد إليك وردك ردّا
آية الورد أنه نفحة منك   ومن عطرك الشذى استمدا
هذه باقة من الورد تجثو   ملك فى الرياض أصبح عبدا
يا جمال الجمال من خلد الحسن   جميعا فى نظرة منك تفدى
يا صباح الصباح من يملك للأضواء   وصفا وللفـــــــرائد عدا
ليس بدعا يا وردة العمر أن   لمغناك وردة الروض تهدى
لا تظنى وردا يكافىء وردا   أنت أعلى حسنا وأكرم وردا
غير أنى وإن عجزت عن التقدير   حاولت ما تمـــــكنت جهدا
رامزا للوفاء بالورد وللقلب   لى أعمق السرائر ودا
وإلى العيد أنت عيد لأيامى   جميعا أنت الحبيب المفدى

ومن ألعجيب أن أرى ناقدا أديبا ينعى على ناجى أنه عاش وحيدا فى أحلامه وضاق شعره عن أن يسع حياة مواطنيه فيما حوله بينما لو أنصف الناقد الكريم لرثى لناجى وأشفق عليه من الوجدة التى كان يحسها فى هذا العالم حيث كان يفتقد دائماً صدى مشاعره فى بيئته هو الذى عاش من أجل الناس يبحث لهم عن السعادة ويقـــدم لهم كل ما ملكت يمينه ويبذل من نفسه لمواطنيه صباح مساء وإذا ما عاد مكدودا بعد يوم عمله لا يجد أحدا يشركه آراءه أو يشكو له مجهوده وكأنه شـــاذ فى مجتمـــعه أو غريب عن عصره وبيئته فتنفطر نفسه أسى وما أروع قوله يصور حاله :

يا قاسى البعد كيـــف تبتعدُ   إنى غريـــب الديار منفردُ
إن خاننى اليوم فيك قلت غدا   وأين منى ومــن لقاك غد ؟
إن غــدا هـــــوة لناظــرها   تكاد فيها الظنـــون ترتعد

أطل فى عمقها أســــائلها ... أفيــك أخفـــى خياله الأبد ؟
ملء ضلوعى لظـــى وأعجبه ... أنـــى بهـــذا اللهيــب أبترد
ياتاركى حيــث كان مجلسنا ... وحيـــث غناك قلبـــى الغرد
أرنو إلى الناس فى جموعهم ... أشقتهـم الحادثات أم سعدوا ؟
تفرقوا أم همُ بها احتــشدوا ... وغوّروا هابطين أم صــعدوا ؟
إنى غريب تعال يا سكـــنى ... فليس لى فى زحامـــهم أحد

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان يحس الشاعر بقيود كثيرة تحد من حريته فيحاول التخلص منها لأنها تقتل منه الروح :

أعطنى حريتى أطـــلق يدى ... إننى أعطيت ما استبقيت شىٌ
آه من قيدك أوهى معــصمى ... كيف أبقيـــــه وما أبقى علىّ

ويشيع التشاؤم بعد ذلك فى شعر ناجى حتى يئس من الحياة ولم يعد يرى لوجوده معنى بعد أن توالت عليه النكبات والمنغصات فترك على مكتبه هذه القصيدة التى لم تتم :

أمل ضائع ولب مشرد ... بين حب طغى وجرح تمرَّد
وضلال مشت إليه الليالى ... هاتكات قناعه فتجرد
فغدا شاحبا كيوم قتيل ... لم يكد يلثم الصباح المورد
غفر الله وهما من ليال ... صورت لى الربيع والروض أجرد
قاسمتنى الورقاء أحزان قلبى ... وشجاه وغردت حين غرد
ثم ولت والقلب كالوتر الرا ... مى يتيم الدموع واللحن مفرد
ما بقائى ؟ أرى إطراد فنائى ... وانتهائى فى صورة تتجرد

وتشتد القيود ويرى ناجى من صحبه الغدر والخيانة فيسوء ظنه بالناس ويفكر فى الموت كالمخلص الوحيد من عناء الحياة وغدر الناس .

عندما تخـلو ديار من رفيق وتحس السـم فى كأس وساقى
عندما يكشف حظ وجهه سافر اللعنة مفقـود الخلاق
عندما تمسى بظـلٍ عالقا وبخيط الوهم مـشدود الوثاق
يا فؤاد انظر وفكـر وأفق أى قيـد لك بالأوطان باق

ولقد كان ناجى من كتاب القصة المبدعين وقد وجد فى القصة القصيرة وسيلة للتعبير بها عن آمال قومه فكانت قصصه صورا حية للبيئة المحيطة به وما يختلج فى قلوب أفرادها من آمال وآلام وقد نحا فى أواخر أيامه منحى التحليل النفسى فاهتم فى قصصه بعرض نفسيات أبطاله للقراء وإبراز العوامل النفسية الخفية فى قلوبهم وإنى لأذكر له قصة « زازا » التى نشرها فى إحدى المجلات فيما يقرب من عشرين عددا .

كما أن ناجى اهتم بالصحافة كثيرا وكان قبل وفاته يكتب فى عدد ضخم من الصحف ينشر فيها مقالاته النثرية التى اتسمت بطابع الفلسفة والنظرة المجردة للحياة فتراه يوما يتحدث عن (رسالة الحياة) فينتهى من الحديث إلى قوله : « ويمكننا من هذا أن نستشف رسالة أبناء الحياة فالحياة تسعى إلى البقاء وتهدف للكمال فرسالة أبنائها أن يتعاونوا على البقاء والكمال » لكن روح التشاؤم التى سادت حياته تطغى على نثره كما طغت على شعره فاقرأه يوما يقول « سنظل ندور كالنحلة إلى أن نموت ونحترق كالشمعة إلى أن نذوب » رحم الله ناجى فلقد قدم حياته قربانا رخيصا لفنه .

* * *

عباس محمود العقاد

وكنت جنين السجن تســـعة أشهر فها أنذا فى ســـاحة الخلد أولدُ
عداتى وصحبى لا اختلاف عليهما سيعــهدنى كل كما كان يعهد

بهذه الأبيات من الشعر لقى العقاد الناس غداة خروجه من السجن بعد تسعة أشهر حكم عليه بها بتهمة العيب فى الذات الملكية .. وبهذه الأبيات كان العقاد أصدق مصور للعقاد فى عظمته وقوته واعتداده بنفسه وشعوره بعبقريته وصلابته فى الحق وثباته على المبدأ الذى يؤمن به ويعيش له ويهب له جماع نفسه .

فكان بحق الرجل الذى « فتح للتطور طريقا فى رأس ملك وعدد من الزعماء واعتصر شجرة الفكر فى العالم ليقدمها للعروبة وجعل من صاحب القلم سلطة فى الدولة بعد أن كان قد انحدر إلى « أدباتى » وسمير يفاكه الخلان ويضحك المسئولين ويقنع دائما بأن يكون فى آخر الصف » .

ولد هذا الرجل عباس محمود العقاد فى مدينة أسوان بصعيد مصر يوم ٢٨ يونية سنة ١٨٨٩ وأسوان مدينة اشتهرت بصخور الجرانيت أقصى الصخور صلابة وتقع فى مكان ضيق من وادى النيل فيه من الطبيعة قسوة وجفاف فكان للعقاد من ذلك صلابة فى الطبع وإصرار على الحق مهما كلفه وصبر وجلد وقوة احتمال مكنته من الانتصار فى معاركه من أجل العيش وفى سبيل الحياة .

وإلى جانب ذلك فأسوان مشتى عالمى يلتقى فيها الناس من أنحاء العالم ومن مختلف الحضارات وتجمع المتناقضات لا سيما ما لمسه فى طفولته من مظاهر الثراء الفاخر بين الوافدين والفقر المدقع لا سيما بين المواطنين ثم تلك الآثار التى تتحدث عن الماضى السحيق وهذه المظاهر الوافدة التى تنبىء عن آخر ما بلغته حضارة الإنسان على الأرض ويقول

العقاد عنها « كانت البلدة التى نشأت فيها بأقصى الصعيد يكاد الناشىء فى مثل سنى أن يأوى إلى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر فى كل ما يسمع أو يبصر من الشئون العامة بغير تضليل أو تهويل . . وتهب الزويعة القومية فلا تفاجئنا فى وسط غيارها فتعمى البصائر عما فيها ولكنها تقترب منها رويدا رويدا فلا تصل إلينا حتى تتكشف على جلاء . . أما بناء الخزان فقد جلب إلى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرأون الصحف الأفرنجية طوال العام ويدفعنا حب الاستطلاع إلى النظر فى هذه الصحف وفى صحف السائحين فلا يفوتنا – مع تتابع النظر – أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها وأن نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح » (١) .

وقد كان أبوه أمينا لمحفوظات أسوان فى عهدته مستندات مديريتى إسنا وأسوان التى أعاد تنظيمها وكان وزوجه – والدة العقاد – متدينين حريصين على النظام فى حياتهما محافظين على أداء الصلاة فى أوقاتها متشددين فى ذلك فورث العقاد عنهما التعفف وصلابة الخلق والترفع عن الرياء والصغائر وفوق كل ذلك النظام الذى حكم حياة العقاد اليومية وأعماله .

وكان طبيعيا بحكم نشأته أن يذهب العقاد إلى المدرسة وأن يستمر بها حتى إتمام الدراسة الابتدائية وكان معظم العلوم وقتئذ يدرس باللغة الإنجليزية والشهادة الابتدائية تؤهل حاملها لوظائف الحكومة فاستطاع أن يظفر بوظيفة بالقسم العالى فى مدينة قنا بمرتب أربعة جنيهات شهريا لكنه استقال من وظيفته فجأة بعد عام والتحق بمدرسة الفنون والصنائع ثم تركها إلى وظيفة فى مصلحة التلغراف التى تلقى دروسها فى مدرسة بضاحية الدمرداش بالقاهرة (٢) .

---

(١) عدد ١١٩٣ من مجلة آخر ساعة فى ٤ / ٩ / ١٩٥٧ .

(٢) ص ٢١ من كتاب (مع العقاد) للدكتور شوقى ضيف .

ولم يكن من طبع العقاد أن يخلد إلى الوظيفة وهو الرجل الحر الأبى الذى يرفض القيد أو الخضوع لذلك نراه ينتقل بين الوظائف المختلفة والصحافة إلى أن ينتهى به المطاف إلى التفرغ للأدب الذى وعيه حياته العريضة المباركة فيظل يثرى لغتنا العربية بدواوينه وكتبه ونفحات فكره إلى آخر لحظات حياته فى صباح ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ .

العوامل المؤثرة فى أدبه

منذ الشباب الباكر كان العقاد يصحب أباه فى زياراته لمجلس الأديب القاضى الشيخ أحمد الجداوى فيستمع العقاد إلى أحاديث الجداوى عن جمال الدين الأفغانى وعبد الله النديم كاتب الثورة العرابية وخطيبها وطبيعى أن يتطرق الحديث إلى أحداث الثورة وزعيمها .

كما سمع فى صباه عن بطل آخر قادم من الجنوب ظلت أسوان تعيش فترة طويلة فى استعداد وترقب وفزع من قدومه إليها مع دراويشه فاتحين .

ولعل والدته كانت تحدثه عن جدها الكردى الذى ذهب مع جنود محمد على إلى السودان لتأديب ملك شندى فشب العقاد مولعا بالبطولة محبا لها فى كل صورها فكانت كتاباته الكثيرة عن عبقريات الإسلام وبطولات الشعوب من خلال زعمائها كصن يا تصن من الصين وغاندى من الهند كما ارتبط فى حياته الباكرة بسعد زغلول بطل ثورة سنة ١٩١٩ بمصر .

ولعل ولعه بالبطولة هو ما يفسر لنا روح التحدى والنضال التى صبغت حياته كلها وظهرت فى معاركة الأدبية العديدة مع أشباه عصره كشوقى والرافعى وفى تحديه لشؤم « ابن الرومى » فكتابه العظيم عن الشاعر العربى القديم « ابن الرومى » قام أساسا على التحدى فقد كان ابن الرومى شاعرا مغموراً فى كتب الأدب القديم لم يحفل به أحد ولم يهتم به أحد فجاء العقاد ليجعل منه حقيقة أدبية ساطعة تقف إلى جانب العمالقة

الآخرين : المتنبى والمعرى وغيرهما – والعقاد هو أول ناقد عربى قديما وحديثا أعاد إلى ابن الرومى مكانته ووضعه فى موضعه الذى يعرفه الآن سائر النقاد والأدباء وقد كان لابن الرومى سمعة خاصة هى أنه شؤم على من يهتم به أو يقرؤه فتحدى العقاد هذا الوهم الشائع وكتب عنه كتابه الفريد فى النقد العربى [١] .

وروح التحدى هذه هى التى جعلت من العقاد أول أديب متفرغ عرفته مصر بعد أن كان كبار الأدباء إما من الأغنياء أو كان الأدب ثانويا فى حياتهم .

نعود بعد هذا الاستطراد إلى العقاد فى أسوان فنراه يندس بين السائحين ليزيد مرانه فى اللغة الانجليزية كما كان يطالع بعض ما تصل إليه يده من الجرائد الانجليزية وكتبها حتى تمكن من إجادتها الإجادة التامة .

وقد اتخذ من هذا الإتقان فيما بعد وسيلته للاطلاع على الآداب الغربية كما نذكر له موقفا بطوليا يوم حضرت لجنة ملنر إلى مصر سنة ١٩١٦ والبلاد تغلى بالثورة وترجمت الحكومة من بلاغ اللجنة أن مهمتها هى « إعطاء مصر استقلالها تحت أنظمة دستورية » ، أما العقاد فقد نشر الترجمة الصحيحة وهى « تحت أنظمة حكم ذاتى » فكان لها دوى كبير فى البلاد وكشفت عن تدليس الحاكمين فى الترجمة وعرضته هو للإيذاء فى وقت كانت البلاد فيه تحت الحكم العرفى .

وأخذ العقاد يلتهم الكتب التهاماً ليثقف نفسه فقرأ كارليل وماكولى وهازلت من أئمة فن المقالة فى القرن التاسع عشر كما قرأ فى علوم النفس واللغة والأديان والفلسفة وعلم الإنسان وعلم الأجناس وفن القصة والمسرح والعلوم الطبيعية وكل علم أو فن أحس بحاجته للاطلاع عليه أو التحدث عنه .

---

(١) بحث بجريدة الجمهورية فى ٩ / ٣ / ١٩٦٤ لرجاء النقاش .

فلما كان فى القاهرة عام ١٩٠٧ بمدرسة التلغراف بدأت صلته بالصحافة فكان يكتب فى جريدة الدستور التى أنشأها محمد فريد وجدى وشارك صاحبها فى تحريرها منذ إنشائها ٠

« وفى سنة ١٩١٢ نشر فى مجلة البيان تلخيصا بديعا لكتاب ماكس نوردو عن أكاذيب المدنية الحاضرة فلفت نظر محمد المويلحى وكان مديرا لقسم الإدارة بديوان الأوقاف فعينه فى الديوان الذى كان يغص بكثير من الأدباء أمثال عبد العزيز البشرى والشعراء أمثال عبد الحليم المصرى وأحمد الكاشف ومحمود عماد » (١) ٠

ولا شك أن صحبة هؤلاء النفر قد أفادت العقاد فى تكوينه الفنى لكنه مع ذلك لم يكن راضيا عن الوظيفة وتركها إلى الإشراف على صفحة الأدب بصحيفة المؤيد التى كان يصدرها حافظ عوض ٠

فى هذه الفترة التقى بالمازنى فى جريدة البيان وعن طريق المازنى عرف صاحبه الشاعر عبد الرحمن شكرى فكانت من ثلاثتهم مدرسة الديوان التى وجهت الشعر العربى الحديث وجهة جديدة وكانت حدثا ضخما فى تاريخه ٠

فإذا كانت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ / ١٩١٨) وحكمت البلاد حكما عرفيا يضيق بالصحافة وحريتها نرى العقاد يعود إلى مهنة التدريس التى كان مارسها قليلا فى أسوان من قبل ثم تنقطع به الأسباب حينا قبيل انتهاء الحرب فيأوى إلى بيت اختاره بعيدا عن صخب العاصمة فى حى الإمام الشافعى على مشارف القبور حيث عكف على القراءة والدرس فى أناة واطمئنان وتعمق زاد من رصانة أسلوبه ودقة أفكاره وترتيب آرائه ٠

فإذا ما انتهت الحرب وهبت الثورة سنة ١٩١٩ نرى العقاد وقد انغمس فى الكفاح الوطنى وانضم إلى حزب الوفد الذى حمل راية

---

(١) ص ٢٩ من كتاب مع العقاد لشوقى ضيف ٠

الكفاح وأصبح كاتبه الأول حتى إذا ما مات سعد وافتقد العقاد البطل فى زعامة الحزب ووقع الصدام ترك الحزب وعاد إلى صومعة الأديب والشاعر .

فى هذه الحياة الطويلة العريضة عاصر العقاد ثورة الدراويش فى السودان وحربين عالميتين غيرتا خريطة العالم تغييرا شاملا وثورات لا أول لها ولا آخر اجتاحت دولا كثيرة من العالم كما شاهد عن كثب وشارك فى ثورة ١٩١٩ وعرف أنه كان محور منشورات جماعة اليد السوداء كما عاصر ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ التى غيرت ملامح المجتمع العضوى تغييرا كليا .

فترة من الزمن اكتنفتها الحروب والثورات والقلق وظهور مبادىء اجتماعية جديدة وكثير من الآراء والأفكار المتضارية تهب على العالم فى كل يوم فى أعاصير تزعزع الثقة وتزلزل ما تعارف عليه الناس من قيم .

ويتنبأ العقاد فى تقديمه لديوان شكرى الثانى بأن ذلك كله إرهاصات لنهضة قومية فيقول « مما لا مشاحة فيه أن النهضات القومية التى تشحذ العزائم وتحدوها فى نهج النماء والثراء لا تطلع على الأمم إلا على أعقاب النهضات الأدبية التى يتيقظ فيها الشعور وتتحرك العواطف وتعتلج نوايا النفوس ومنازعها وفى هذه الفترة ينبغ أعاظم الشعراء وتظهر أنفس مبتكرات الأدب فيكون الشعر كالناقوس المنبه للأمم والحادى الذى يأخذ بزمام ركبها » .

وما أصدق نبوءة العقاد هذه على تلك المرحلة التى مرت بمصر خلال النصف الأول من القرن الحالى التى أخرجت لنا مجموعة نباهى بها الأمم من العباقرة وكبار الشعراء والأدباء الذين كانوا بالنسبة للنهضة القومية الوقود الذى حركها والنور الذى سارت على هديه والترجمان الذى عبَّر عن آمالها وآلامها .

هذه بعض العوامل التى أحاطت بالعقاد فى حياته وأثرت فى تكوينه الفنى إلى جانب استعداده الشخصى الذى لا ينكر فهو قد اشتهر بحافظة قوية مذهلة لا شك فى أنها ساعدته على استيعاب كل فروع العلوم التى طالع فيها فكانت دائما الحافظة الأمينة المتأهبة لأن تزوده بما يشاء فى أى

وقت يريد حتى قال عنه الدكتور زكى نجيب محمود « لو صدق فى صنوف العلم مرة فهو صادق ألف ألف مرة إذا ما كان الموضوع المثار خاصا باللغة العربية وآدابها فما هى اللفظة الواحدة التى لا يردها إلى أصولها ولا يشق لك مشتقاتها ولا يضغط لك رسمها ولا يعطيك ظلال معانيها عفو ساعته ؟ وما هو بيت الشعر الواحد الذى تطلب نسبته الصحيحة ولا ينسبه لك على أثر سؤالك ؟ أين هو الموقف الواحد الذى يعرض لنا ونريد أن نعرف فيه هل الأمر الفلانى يجوز فى اللغة أو لا يجوز دون أن يكون للعقاد فيه الرأى الحاسم السريع »[١] .

كما امتاز بالذكاء الفطرى النادر وحضور البديهة ودقة الملاحظة والشعور المرهف إلى جانب صلابة فى الحق وترفع عن الصغائر .

العقاد الكاتب

بعد أن استكمل العقاد عدة الأديب وألم من كل علم بطوف أخرج إنتاجه الغزير للناس فى الشعر والنقد السياسة والقصة والسير والدين والفلسفة حتى غدا بين الناس موسوعة ضخمة وقيل إنه « ملأ الدنيا وشغل الناس » .

لكن العقاد فى كل ما كتب تميز أسلوبه بين الأساليب واتخذ طابعا خاصا هو طابع العقاد الذى أخضع كل شىء للفكر ومنطق الفكر محاولا بهذه النزعة الفكرية الفهم والتفسير معتبرا الاحتكام إلى غير الفكر رعونة حقيقة بالرثاء فيقول فى معرض دفاعه عن الإسلام وتعليقا على بعض ما يرد إليه من رسائل : « ذلك النوع من الرسائل الذى يتهجم أصحابه على الإنكار والجزم بالنفى لغير حجة قاطعة وهو تهجم سىء الدلالة من جهة العقل لا من جهة الدين وحسب لأن العقل الذى يسرع إلى البت فى مسألة الكون كله بهذه الرعونة حقيق بالرثاء وإذا بدا أن هذا العنف تبعة للعقل فهو فى الوقت نفسه حجة تؤيد قوة الإيمان لأن الخطأ الواضح فى

---

(١) من بحث فى العدد ٨٩ من المجلة .

مهاجمة الإيمان حجة ناهضة على حصانته المنيعة أمام هجمات المتعجلين »[1] .

بل بالغ العقاد فى الركون إلى الفكر وجعله يسود كل أعماله حتى لتخاله يمسك بمبضع الجراح ليحلل لنا دوافع العاطفة والوجدان فيجذب عقل القارىء معه فى رحلة التشريح بدلا من أن يدعه ينعم بالاستمتاع الذاتى بدفء التجربة الإنسانية ... استمع إليه يتحدث عن لقاء بعد فراق بين محبين :

« من النادر جدا أن يتواعد محبان على اللقاء بعد فراق طويل ثم لا يسرعان إلى موعد اللقاء بلهفة شديدة واشتياق عظيم ، إن لم يكن حبًّا أو حنينا أو رغبة فى المتعة والسرور ، فعلى الأقل من قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كل منهما فى الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله أيام الغياب الطويل .. هل أحبت غيره ؟ وهل أحب غيرها ؟ وهل سلت ؟ وهل سلا ؟ وبماذا يشعران فى الحب الجديد ؟ أو ماذا بقى عندهما من الحب القديم ؟ وماذا تقول له حين تخلو به ؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها ؟ وأشباه ذلك من الأسئلة التى يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه فى أشد الحاجة إلى الوقوف على جوابها فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب ، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثير من الناس محبين كانوا أو غير محبين [2] .

بهذا الأسلوب الناضج الواعى استطاع العقاد أن يقوم بدور أصيل فى نهضتنا الفكرية « دور يقوم على نقل الفكر الغربى إلى أوعية لغتنا مع فحصه وطرح مالا يلائمنا منه بل أيضا مع تصحيح الخطأ فى بعض شعبه وبيان ما فيها من عوج وانحراف » .

« كما كان له نصيب كبير فى تيسير اللغة ونصيب أكبر فى مرونتها لأنه كان من أكثر معاصريه انغماسا فى الفكر الأوربى »[3] حتى أصبحت

---

(١) العدد العاشر من مجلة منبر الإسلام مارس ١٩٦٢ .

(٢) ص ٣٧ من قصة « سارة » طبعة دار الهلال .

(٣) ص ٥٧ ، ٦٦ من « مع العقاد » لشوقى ضيف .

لغته ولغة أمثاله من معاصريه - كالمازنى وطه حسين - لغة عامة فى أقطار العروبة تسهم بحظ عظيم فى الوحدة اللغوية لنثرنا العربى ٠

ومعظم إنتاج العقاد الذى نيف على الثمانين كتابا كتبه نثرا ولو أن بعض نثره تخالطه الرقة المتناهية حتى يكاد يحاكى الشعر الوجدانى ٠

وتنوعت دراساته الأدبية فهو يقدم لنا أروعها فى كتابه (ابن الرومى ٠٠ حياته عن شعره) ثم يقدم لنا دراسة عن عمر بن أبى ربيعة شاعر الغزل ودراسة أخرى عن جميل بثينة شاعر الحب العذرى ومعاصر ابن أبى ربيعة وثالثة عن أبى نواس الشاعر الماجن ٠

كما كتب عن فلاسفة وشعراء من الغرب وقدم للقارىء العربى زادا عميقا من دراساته المنوعة فى كتبه « الفصول » و « مطالعات » و « مراجعات » و « ساعات بين الكتب » ٠

وكان العقاد يصدر فى كل كتاباته عن إيمان عميق راسخ لا يتزعزع بعقيدته وفكره وواجبه ٠٠ وهذا الشعور بالواجب هو الذى جعله يتقدم الصفوف فى المعركة الوطنية لثورة سنة ١٩١٩ بل ومنذ باكورة حياته نراه يكرس قلمه للمعركة السياسية وحرب الاستعمار حتى إذا انضم إلى حزب الوفد بعد هذا المران الطويل فى مصارعة الساسة ومحترفى السياسة نراه قد أصبح كاتب الحزب الأول ذا القلم المسلول الذى يقطر سخرية لاذعة تنزل كالسياط فتلهب الاستعمار وظهور أعوانه ونرى المقالة السياسية قد تحولت بفضل العقاد إلى لون من ألوان أدبنا العربى الحديث له شأنه ٠

وقد حاول العقاد معالجة القصة فأخرج لنا روايته الوحيدة (سارة) معتمدا فيما على التحليل النفسى وقد اختلفت الآراء حول هذه القصة وقيمتها الفنية فيقول الدكتور شوقى ضيف « القصة لا تحتوى أحداثا نامية متطورة فى مواقف متعددة وأيضا فإنها لا تحتوى شخوصا تنتقل فى أطوار متعاقبة إلى غاياتها ونفس الشخصين الأساسيين فيها وهما سارة وعاشقها

همام يتجمدان فى موقف واحد هو موقف الشكوك والغيرة وما صحبه من مصارعة هذين العدوين الفاتكين للحب حتى ضاق به همام متجشما أهوالا ثقالا بل حتى أصبح نكرا لا يطاق مما جعله يقطع الصلة بينه وبين صاحبته إلى غير مآب وليس هذا كل ما يلاحظ على القصة فإنها أيضا لا تتصل بالبيئة المكانية والزمانية التى وقعت فيها اتصالا واضحا »(١) .

أما نجيب محفوظ فيقول :«سارة فى وقت كتابتها كانت تعتبر مكتوبة فى أحدث إطار عرفته القصة الأوربية وهو إطار القصة التحليلية .. ومن هنا تعتبر (سارة) من أقوى الشخصيات التى خلقها الأدب الروائى فى مصر ولا أعتقد أن شخصية أخرى – فى أدبنا – حللت بهذا الجمال والعمق .

لقد كانت كأغلب القصص الحديث الذى يعتمد على التحليل أضعاف ما يعتمد على السرد ومع أنها كتبت بأسلوب يشبه الأسلوب العلمى إلا أن فيها شاعرية لم توجد حتى فى دواوين الشعر وأنا أستطيع أن أقول باطمئنان إنها من الروايات التى تتلمذت عليها »(٢) .

وأيا ما كان الرأى فالحقيقة التى لا تنكر هى أن سارة دراسة نفسية ممتازة غاصت إلى أعماق النفس البشرية لتحلل لنا تحليلا علميا الصراع الجامح بين الحب والشك والغيرة .. أما إنها قد حوت من الشاعرية ما يفوق ما يوجد فى دواوين الشعر فهذا قول قد يصدق إذا آمنا بما أسماه العقاد (شعر الفكرة) واقتنعنا بأن هذا التشريح العلمى لنفسيات أشخاص الرواية هو من الشعر .

ولقد كان العقاد وهو يكتب سارة صادقا مع نفسه لم يشذ على ما حمل نفسه عليه طوال حياته من إخضاع كل شىء للعقل .. حتى عندما يحدثنا عن أرق عواطفه .. عن لهفة قلبه على أعوام العمر التى تمضى والموت الذى يقترب بشبحه المخيف ليبدد الآمال والأحلام .. نسمعه يقول :

---

(١) ص ٦٢ من كتاب « مع العقاد » .

(٢) من حديث له بمجلة الرسالة عدد ١٠٥٤ فى ٢٦ / ٣ ١٩٦٤ .

عيد ميلادى تقدم .. وتأخر .. وتكلم
لا تقل لى قبل عام .. كيف كنا ؟ أنا أعلم !
تظلم الموت إذا قلت ظلوم ليس يرحم
نحن لا بالموت أعطينا .. ولا بالموت نحرم !
صفقة الأعمار فيها .. قلة الخسران عشتم
إن يكن ذلك شيئا لست بعد الموت أعدم
أو يكن ليس بشىء .. أترى (لا شىء) يندم ؟
أية الحالين قل لى .. بعد طول العمر أسلم ؟

أم تراها كبرياء العقاد هى التى تداور ولا تريد أن تستسلم وتأمل فى طول العمر ... ؟ .

العقاد الشاعر

قال العقاد فى مقدمة الجزء الأول من ديوان المازنى « حسب الأدب العصرى الحديث من روح الاستقلال فى شعرائه أنهم رفعوه من عراقة الامتهان التى عفرت جبينه زمنا فلن تجد اليوم شاعرا حديثا يهنىء بالمولود وما نفض يديه من تراب الميت ولن تراه يطرى عن هو أول ذاميه فى خلوته ويقذع فى هجو من يكبره فى سريرته ولا واقفا على المرافىء يودع الذاهب ويستقبل الآيب وما بالقليل من هـذه الروح الشماء فى الأدب أنها استطاعت أن تجهز على آداب المـواربة والتزلف بينـنا أو تردها إلى وراء الأستار بعد إذ كانت تنشد فى الأشعار وينادى بها فى ضحوة النهار » .

والعقاد هنا يتحدث بلسان « مدرسة الديوان » أى عن نفسه وصاحبيه إبراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى وقد صدق فليس بالقليل أن ترد للأديب اعتباره وللشاعر احترامه .

لكن هذه المدرسة كان أثرها أبعد وخيرها على الشعر العربى أعم وأكبر عن مجرد رفع مكانة قائليه .. فمن آثارها مدرسة التجديد بالمهجر ومدرسة أبولو بمصر أو بعبارة أخرى ثورة فنية كبرى وثروة فكرية جارفة .

ولكن نوضح هذا الأثر الذى أحدثته مدرسة الديوان يجب أن تعلم مقاييسها الفنية فالشاعر فى نظر هذه المدرسة لابد أن يكون من أصحاب الطبيعة الفنية السليمة و « تمام هذه الطبيعة » كما يقول العقاد « أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا لا يفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته فديوانه هو ترجمة باطنة لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان » .

وهو رأى يوضح إلى حد كبير معنى الشعر كما يفهمه أصحاب المدرسة من أنه التعبير عن خواطر النفس وأحاسيس الإنسان .. أو كما يقول العقاد :

« ليس الشعر لغوا تهذى به القرائح فتتلقاه العقول فى ساع كلالها وفتورها .. إنما الشعر حقيقة الحقائق ولب اللباب والجوهر الصميم من كل ماله ظاهرة فى متناول الحواس والعقول وهو ترجمان النفس والناقل الأمين » (١) .

ويمضى قائلا « ويرون – القراء – فى هذه الصفحات نظرة المتدبر وسجدة العابد ولمحة العاشق وزفرة المتوجع وصيحة الغاضب ودمعة الحزين وابتسامة السخر وبشاشة الرضا وعبوسة السخط وفتور اليأس وحرارة الرجاء ويرون فيها إلى جنب ذلك من روح الرجولة وما يكظم تلك الأهواء ويكفكف من غلوائها فلا تنطلق إلا بما ينبغى من التجمل والثبات ..

---

(١) من مقدمة الجزء الثانى لديوان شكرى .

إن شعر شكرى لا ينحدر انحدار السيل فى شدة وصخب وانصباب ولكنه ينبسط انبساط البحر فى عمق وسعة وسكون » .

بل إن العقاد يرى فى الشعر طبيعة الإنسان موصولة بالكون وحقائقه الأبدية التى لا تتناهى عندما يقول فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه « الشعر يعمق الحياة فيجعل الساعة من العمر ساعات ، عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التى يعرض عنها سواك ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما فى وسع الإنسان أن يعيش وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت » .

ولقد حاول العقاد دائما أن يعيش ما يعتقد ويترجم عن آرائه هذه شعرا ما وسعته أداته وكان الشعر آثر فنون العقاد وأحبها إلى نفسه ولقب « الشاعر » أغلى الألقاب لديه وأكرمها .

لذلك كان يعتز بشعره أشد الاعتزاز حتى ليعده روحا من روح الله وترجمان الحياة والشاعر ينشىء فى قوله :

الشعر من نفس الرحمن مقتبسٌ   والشاعر الفذ بين الناس رحمن
والشعر ألسنة تفضى الحياة بها   إلى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت وهى فاتنة   خرساء ليس لها بالقول تبيان
ما دام فى الكون ركن للحياة يرى   ففى صحائفه للشعر ديوان

وقد أجاد العقاد الوصف ليس لظاهر الموصوف فحسب بل أعماقه وأبعاده أيضا وما وراء ذلك الظاهر من معانى لا تراها إلا عين الشاعر وبصيرته المتعمقة .. واستمع إليه يصف ليلة مقمرة من ليالى الاسكندرية :

شف لطفا عما وراء السماء   نور بدر مفضض اللألاء
رق سجف السماء حتى كأن الـ   ـعَيْن تتلو هناك سر الفضاء

وسرى الطرف فى الفضاء فما يثـنيه ثان عن خوض ذاك الفضاء
وربا النور كالعباب فما فى الـــــكَوْن غير الظلال عن ظلماء
فى سكون كأنه تفس الحــا لم أو خفق طائر فى الهواء

ولقد كان حظ العقاد من حس الطبيعة وافرا وشعوره بها عميقا إلى حد الامتزاج والعشق فهو يضفى عليها من روحه ما يجعلها تهتز وتختلج وتصور بالحياة ولا شك فى أن العقاد قد تأثر فى ذلك بروح العصر الرومانسية التى شاعت بين كتابه مؤلفين ومترجمين والذين كانوا يجدون فى الطبيعة مهربا وأُمًّا يلتمسون عندها الراحة والحنان .. وها هو العقاد يتحدث إلى « الكروان » فى ديوانه فيقول :

أنا لا أراك وطالما طـرق التـــهى وحىٌ ولم تظفـــر به عينان
أنا فى جناحك حيث غاب مع الدجى وإن استـقر على الثـرى جثمانى
أنا فى لسانك حيـث أطلقـه الهوى مرحا وإن غلب الـسرور لسـانى
أنا فى ضميرك حيـث باح فما أرى سرا يغيبـه ضـــمير زمـانى
أنا منك فى القلب الصغير مساجلٌ خفق الربيـع بذلك الخفقـــان
أنا منك فى العين التى تهب الكرى وتضن بالصحـوات والأشـــجان

ولقد تأثر العقاد بالبيئة حوله وأثر فيها وترجم صادقا عن أحداث مصر ، فهو يصور لنا تلك البيئة الرأسمالية حينما كان أبناء الشعب يتضورون جوعًا ليثرى صاحب الأرض والقصر والمصنع ويحبسون أموالهم عن العمل لمصلحة البلاد :

لا تحسبوا أمة يعلو أعاظمـــها إذا الفقـــير طلابُ القوت أعياه
أيرزح القوت فى أرض بطالبــه ويبلغ المجـــد فيها من توخاه ؟
دفنتم المال آكاما فهـــل نبتت فى باطن الأرض أو زادت خباياه ؟

إن العزيز ليأبى الذل لصاحبه كالإثم يأبى العفيف الذليل رؤياه

هذا المجتمع لا تكتمل صورته إلا بأهل النفاق الذين يتسلقون قمم المجد على حطام الفضيلة بينما الإنسان الصادق المخلص يتوارى لأنه لا يستطيع مجاراة هذا المجتمع :

فشت الجهالة واستفاض المنكر فالحق يهمس والضلالة تجهر
والصدق يسرى فى الظلام ملثما ويسير فى الصبح الرياء فيسفر
إنا لفى زمن كأن كباره يرى الكبائر شأنها لا يكبر
من كل ذى وجه لو أن صفاته تندى لكان من الفضيحة يقطر

لكن العقاد لا يستسلم لليأس أبدا بل هو دائما يستنهض همم الشباب ليثور ويحقق للبلاد آمالها بلا يأس أو قنوط فى مثل قوله :

شبان مصر وما دعوت سوى الأولى يحيا بهم أمل البلاد ويورق
أيعيش فى لهو الرفاهة من له من كل صعلوك إليه مطلق ؟!
لكم الغد المنشود فاعتصموا به فإذا استقر لكم أساس فارتقوا

وهو يمهد فى دعوته للثورة على الظلم بفضحه للناس حتى يستثير حميتهم ويدفعهم دفعا إلى التمرد عليه :

لا يكنْ من بنى الكنانة باغ يملأ الناس دوره وهو خال
ويكيل النضار وهو دماء جمعت من مصارع الآجال
كيف ترعى عناية الله أرضا باء فيها المجد بالإقلال
ينسج الخز والحرير ويمشى حافيا فى الرقاع والأسمال
ويشيد القصور وهو شريد فى زوايا الكهوف والأطلال
ويدر الغنى وما فى يديه شبعة الوالدين والأطفال
يهب المترفين عمر فراغ وهو باكى الأيام باكى الليالى

ذاك ظلم نعـــيذ بالله مصرا   من أذاه فى مقبـــــل الأجيال

فإذا ما تحققت الآمال بثورة ٢٣ يوليه استقبل الثوار بقصيدة تصور فرحته بعيد انتصرت فيه الحرية هو عيد النيل وربيع الحياة فى مصر وانقضاء الظلم وسيادة الشعب :

يا صحـــــبة التوفيق وفـ   ـقتم إلى النهـــج السـديد
حييـــــــــتم النيل المبا   رك واحتفيـــتم بالصعيد
عيـــــــد له فى ذمة الـ   ـتاريخ توفيـــق حصيد
عيـــــــد الأوائل والأوا   خـر والخمـــائل والورود
فى كل عام تحتـــــــفو   ن بمولد اليـــــوم الجديد
لا راغم فـــيه يـــــسا   د وكل من فـــيه يسود

أما شعر الوجدان عند العقاد وأعنى به العاطفة الخالصة النابعة من الشعور الصادق والإحساس الذاتى العنيف فهو غير كثير عند العقاد وإن كان يبلغ الذروة عندما يترجم عن وفائه الذى كان مضرب الأمثال ، استمع إليه يرثى صديقه ورفيق عمره المازنى :

وقالوا : المازنى قضى ، فضلـت   مقاصد قولهـم أو ضـــل رشدى
كأن حديث ما زعمـــوا خيال   بعـــيد فـى الحقيـــقة أى بعـــد
إذا عين فقت فأعجـــب لأخرى   من العـــينين طلــــقة بســـهد
صحبنا العمـــــر عاما بعد عام   على الحالين مـــن ضـنك ورغد
وبين تعـــــهد منـــــه ومنى   وبين تبســـط منـــا وجـــــدّ
وغيرت الحـــــوادث كل عهـد   ســـــوى ما بينـــنا من عهد وود
ســـــلاما ، أيتها الدنيا ســلاما   لأنت أحـــــب لى لو مات بعدى

تحس أن عمق الشعور بالرزء جعل العقاد هنا يتخلى عن تحكم العقل ويستسلم للأسى فيجيد التفجع والحزن إن جاز التعبير ٠

أما إذا تحدث فى الغزل فهو يميل إلى التجرد عن المادة ويغرق فى وصف الروح والشمائل وكأنى به يترفع بشعره عن الحديث المباشر عن الجسد والغريزة ٠٠ فهو يقول :

أوتيت من حسن الشمائل نعمة والحسن فى الدنيا من الآفات
والحسن يعشقه الكـــريم وربما أغرى لئيم النـفـس بالنزغات

إنه بذلك يجرد شعره من حرارة الحياة ودفء العاطفة التى تنبع من فطرة الإنسان وغريزته الأبدية التى توجهه إلى حفظ نوعه ٠٠ ومتى خلا الحب من آثار الجسد ؟

إن مثل هذه القصيدة التى يتحدث فيما العقاد عن لحظة نعيم الحب فيقول :

لحظة تمنح قلبـــــى كل هاتيـــك الهبات
لحظة ترفع عمـــرى حقـبا متصـــلات
لحظة ؟ لابل خلـــود لاح بين اللحـــظات
كالســـموات تراها من شـــباك الحلقات
رب آباد تجـــلت من كـــرى مختلفات
وقطيـــــرات زمان مــلأت كأس حـــياة

أقرب إلى التأمل الفلسفى منها إلى التجربة الإنسانية التى تزخر بالعاطفة وتترجم عن الشعور ٠٠

ولعل السر فى ذلك يرجع إلى ضآلة دور المرأة فى حياة العقاد لأننا نراه لم يسجل من هذا الجانب من حياته إلا صورة تلك الغانية اللعوب

بائعة الهوى فى قصة (سارة) ولعل مرجعه كذلك إلى كبرياء العقاد العنيفة التى تأبى الاعتراف بالضعف حتى فى أتون الحب .

استمع إليه يرفض عودتها فى ترفع وعناد :

تريدين أن أرضى بك اليـوم للهوى ... وارتاد فيـك اللهـو بعد التعبد
وألقاك جسـما مستباحـا وطالما ... لقيتك جـم الخوف جم التردد
إذا لم يكن بد من الكـأس والطلا ... ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى

وقد اختلفت الآراء : آراء النقاد حول شعر العقاد اختلافا كبيرا ووقف كثير منهم على طرفى نقيض فالأستاذ رجاء النقاش يقول :

« لقد كانت ذاتية العقاد تمتزج بنوع برىء من حب النفس .. لقد كان العقاد يعشق نفسه – فى براءة أشبه ببراءة الأطفال – ولو غلبت على العقاد النظرة الموضوعية لما نشر جانبا كبيرا من شعره فقليل من شعره يستحق الحياة والبقاء وأغلب شعره ضعيف محدود القيمة .. ولكن ما دام هذا الشعر صادرا عن عبقرية العقاد فلابد أنه شعر جميل .. ولا يهم المقياس الموضوعى بعد ذلك عند الآخرين » (١) .

وهذا تعميم ينقصه الدليل والبيان كما تعوزه الموضوعية التى طالب بها الناقد العقاد ومع ذلك فقد حذا حذوه الشاعر نزار قبانى عندما قال فى حديث له « العقاد العظيم قل أن تعطى مثله العصور .. الفنون كلها .. والمعرفة كلها طرقت بابه .. ولكن الشعر .. ظل وراء الباب .. أعنى أن العقاد كان حقلا من سنابل القمح .. ولم يكن أبدا حقلا من التيوليب أو حقلا من عناقيد العنب .. أدب العقاد كان من النوع الذى يمنحنا غذاءً ذهنيا كاملا .. ولم يكن من النوع الذى يمنحنا نشوة جمالية دافئة .. وهذا لا ينقص من قيمة العقاد .. فسنبلة القمح مكانها على

(١) من بحث بعدد ١٩ / ٣ / ١٩٦٤ من جريدة الجمهورية .

الرابية .. وللزنبقة مكانها .. ومن الظلـم أن نطلـب من السنبلة أن تعطينا عطرا .. كما أن من الظلـم أن نطلب من الوردة أن تعطينا قمحاً[1].

وهكذا يجرد نزار العقاد من شاعريته لأن شعره لم يمنحه نشوة جمالية دافئة ، وأغلب ظنى أن نزار لا يرى الجمال فى غير المرأة وفى غير حديث الحب والجنس ، أما غير ذلك من خبرات الحياة فلا قيمة له لكن الدكتور طه حسين يقول فى عام ١٩٣٤ « إنى لا أؤمن فى هذا العصر الحديث بشاعر عربى كما أؤمن بالعقاد .. ، إن له قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا .. قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب لأنهم أقل الناس قراءة فى هذا العصر .. خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيراً إلا فى أوربا حيث يلتمس الشعراء الفن لا فى الأدب وحده بل فى العلم وفى كل شىء آخر » .

ويكبر طه حسين شعر العقاد « لأنى حين أسمع شعر العقاد إنما أسمع الحياة العصرية الحديثة » .

« ثم لأنى إذا قرأت شعره مرة ومرة لم أستطع أن أقول لنفسى .. قد قرأت هذا الكلام من قبل أو أين قرأت هذا ؟ أفى شعر البحترى أم عند أبى تمام أم سبق أبو نواس إلى مثل هذا الكلام ؟ كلا .. إنما تقرءون العقاد فتقرءونه وحده ، لأن العقاد ليس مقلدا ولا يستطيع أن يقلد ، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته وشخصية العقاد فوق الفساد ، خذوا ما شئتم من دواوين الشعراء المعاصرين الذين أكبر منهم كثيرين وأحب منهم كثيرين .. أنا واثق أنكم لن تمضوا فى قصيدة حتى تذكروا شاعرا من المتقدمين أو أن تذكروا شاعرا من الغربيين المحدثين ولكن أنظروا فى العقاد خذوا بيتا من العقاد أو قصيدة أو مقطوعة فلن تروا إلا العقاد » [2] .

نلمس من أقوال الدكتور طه أنه معجب بثراء شعر العقاد فى الفكرة

---

(١) عدد ٢٩ / ٦ / ١٩٦٤ من الأخبار .

(٢) من بحث للدكتورة نعمات فؤاد بالمجلة عدد يونية ١٩٦٤ .

التى ترفدها ذخيرة كبيرة من الاطلاع والمعلومات وقد كان من أثر هذا الثراء أن كثر شعر التأمل الفكرى فى دواوين العقاد الذى يعالج مشاكل الفلسفة والمنطق كقوله :

أين الحقيقة ؟ لا حقيقة   كل مـا زعمـــــوا كلام
الناس غرقى فى الهـــوى   لـم ينـــــج غر أو إمام
كل يهيـــم بهـــا فإن   لاحت لهم صدوا وهاموا
كم أشرق الحـــق الصرا   ح فأعرضـــت عنه الأنام
والناس لو تـــدرى خفا   فيش يطـــيب لها الظلام

العقاد الفيلسوف

يقول الدكتور زكى نجيب محمود « أما العقاد الذى كان بدوره قد استقر إلى آخر يوم فى حياته على رأى آخر هو رأى الفلاسفة العقلانيين الذين يقبلون المفاهيم الذهنية حتى ولو لم يقابلها فى عالم التجربة الحسية مسمى قريب إلى عين الإنسان ويده » (١) .

وقال آخرون إن العقاد قد تأثر فى فلسفته بآراء كنط Kant فى التفرقة بين « عالم الظاهرات وعالم الأشياء فى ذاتها » .

لكن الواقع أن العقاد لم يكن له مذهب معين فى الفلسفة بل هو قد آمن بالعقل وبأن هذا العقل أكرم على صاحبه من أن يخضعه لمذهب فلسفى واحد أو رأى ارتآه عقل آخر كما أيقن بعد دراساته الطويلة فى المذاهب الفلسفية بأن العقل وحده لا يستطيع أن ينفذ إلى معرفة الحقائق الكونية لأن هذا العقل لن يطلعنا على غير أوصاف تلك الحقائق وأعراضها أما كنهها فإنه يتوارى عنه .

إنما الوجدان هو الذى يحس هذه الحقائق ويتغلغل فى الوعى بها بل ويتصل بالذات الإلٓهية مستشرفا صفاتها العلية .

(١) من مقال بمجلة المجلة عدد مايو ١٩٦٤ .

يقول العقاد : « إذا لم تكن النفس من التمكن من ينبوع الوجود بحيث يسرى إليها الإيمان به من داخلها كما يسرى عصير الحياة إلى الشجرة اليانعة من مغرسها فسريان الإيمان إليها من الخارج مستحيل . وكل شعور بعظمة الحياة فإنما هو شعور بعظمة الله الحقيقية وهو الإيمان الحق المقصود»[1] .

وهكذا انتهى العقاد من رحلته الطويلة فى عالم الفلسفة إلى الإيمان العميق وإلى أن (الإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة لأن الإنسان غير المؤمن إنسان غير طبيعى فيما يحس به من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه وأن الحس والعقل والوعى والبديهة جميعا تستقيم على الإيمان بالذات الإلٓهيةوأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم) وبعبارة أخرى (إن العقيدة الدينية هى أقرب الفلسفات إلى المعقول) .

وأعتقد أنه نتيجة لهذه الفلسفة أو لما استخلصه العقاد من دراساته فى الفلسفة أن اتجه هذا الاتجاه الدينـــى فى كتاباته الأخيرة لاسيما كتابيه (إبليس) و (الله) ثم العبقريات التى أثرى بها مكتبتنا العربية .

ويجرنا ذكر العبقريات إلى الحديث عن علم النفس – الذى كان يعتبر إلى عهد قريب فرعا من فروع الفلسفة – والذى لا شك فيه أن العقاد قد أولى هذا العلم اهتماما خاصا منذ مطلع حياته الأدبية حتى أصبح منهجه فيما يكتب من دراسات عن الشعراء أو تأريخ لأعلام الأمم هو المنهج القائم على الفلسفة النفسية وإبراز خصائص النفس .

بل لقد اتبع نفس المنهج فى كتاباته الأدبية الأخرى فنراه يبـنى قصة (سارة) على تحليل نفسية أشخاصها بل ويعرض فى سياقها لتحليل المشاعر الإنسانية بصفة عامة .

فهو يحاول أن يحلل أثر الحادثة على نفس الإنسان – أية حادثة وأى

---

(١) خلاصة اليومية .

إنسان -- عندما تفجأ صاحبها ثم وهو يعانيها ثم بعد أن يبعد العهد بها فيقول « تشغلنا الحادثة أياما وشهورا فلا نفكر إلا فيها ولا نحسب أن فى الدنيا أمرا جديرا بالتفكير والاهتمام غيرها ولا نظن أننا نطيق العيش ونصبر على البقاء لو تحقق ما نحذره منها ، ولا نرضى من أحد أن يستخف بها ويستكثر ما نعيره إياها من الهم والقلق والأهمية ثم تمضى الحادثة وتتبعها العاقبة بعد العاقبة فتصبح عندنا – نحن لا غيرنا – تسلية نرويها ونضحك منها ونتفرج بها كما نتفرج برؤية المشاهد الفنية التى تقع لشخوص المسارح الخيالية ! (١) .

أما تلك الدراسات الفذة التى عرفت باسم العبقريات – والأصح أن تسمى عبقريات العقاد – فقد اعتمد العقاد فى كتابتها على تحليل نفسية كل عبقرى تحليلاً شاملا عميقا بعد أن يتوصل إلى مفتاح شخصيته .

ولنضرب لذلك مثلا من كتابه « أبو الشهداء : الحسين بن على » .. فرغم أن الكتاب لم يعنون « بعبقرية الحسين » إلا أن العقاد سار فيه على نفس النهج وقد أشار فى المقدمة إلى مفتاح شخصية الحسين .. شخصية المثالى الذى يواجه دنس الأغراض :

« عجبا إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ولم يزل الشهداء يصلونها نارا حامية من عبيد البطون والأكباد ولم يزل داؤنا العياء » (٢) .

ثم يقول « يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان .. مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال .. فقد تقترن الأريحية بالمنفعة، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما إذا اصطدما – ولا سيما فى الأعمال الكبيرة – لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين ، فهذا للأريحية حتى

(١) ص ٩١ من (سارة) – طبعة دار الهلال .
(٢) ص ٥ – ١١ من أبى الشهداء – طبعة دار الهلال .

يجب المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يجب الأريحية ويخفيها . . أو كذلك يتراءيان . .

أما الأريحية التى يتجاوز بها الإنسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الإنسانى كله . ومن ثم يكتب لها الدوام إذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك .

وأصحاب الأريحية إذن أبعد نظرا من دهاة الطامعين والنَّهازين للفرص والمغانم العاجلة ، لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير فهم – شعروا أو لم يشعروا –بعيدو النظر إلى عواقب الأمور ، وإن خيل إلى أناس انهم طائشون متهجمون » .

ويمضى العقاد ليحلل لنا مثلا أعلى من أمثلة أصحاب العقائد والمثل العليا والمثل الخالص لوجه الحق والكمال والاستشهاد فى سبيل العقيدة والمثـل ، ويحلل شخصـية الحسـين التى خلقت للأريحية والنخوة . . تلك الشخصية التى أصبحت رمزا يحاول محاكاته الناس حتى أنه « لما نعى الحسين فى الكوفة نادى واليها ابن زياد إلى الصلاة الجامعة ، وصعد إلى المنبر وخطب القوم يقول (الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته) . . فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدى الذى ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين ، فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه (يا ابن مرجانة ! أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولأك وأبوه) . . فما طلع عليه الصباح إلا وهو مصلوب . . » .

من هذا نرى أن علم النفس كان مجال التطبيق العملى الواسع الذى جال فيه العقاد بفلسفته وصال .

---

(١) ص ١٧ من أبى الشهداء .

الإنسان الحر

من أهم السمات المميزة لشخصية العقاد تقديسه للحرية وإيمانه بهذه القدسية حتى أنه استهان فى سبيل حريته بالجوع والعطش وكل صنوف الاضطهاد حتى السجن ولم يجبن – كما فعل غيره – فى جلسة مجلس النواب يوم ١٧ يونية سنة ١٩٣٠ وإسماعيل صدقى على رأس الوزارة والملك فؤاد يتدخل فى سياسة الدولة تدخلا ديكتاتوريا غير مشروع . . فقال قولته المشهورة :«يجب على هذا البلد أن يكون على استعداد لسحق أكبر رأس تعتدى على الدستور وحرية الأمة » ولم يكن هذا الإيمان العميق بالحرية عن فورة حماس وثورة عاطفة بل عن دراسة واعية وعقيدة راسخة وأحد مقومات فلسفة العقاد التى انتهى فيها إلى القول بتلازم الجمال والحرية فهو يقرر :

« أن الحرية فى رأيى هى العنصر الذى لا يخلو منه جمال فى عالم الحياة أو فى عالم الفنون ، وأننا مهما نبحث عن مزية تتفاضل بها مراتب الجمال فى الحياة لا نجد هناك إلا مزية (حرية الاختيار) التى يفضل بها الإنسان الكامل من دونه من المرجوحين فى صفات النفوس وسمات الأجسام ، على أن المادة الصماء نفسها تتفاضل فى الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة (الإرادة) فتروقنا النيران والرياح والأمواه ، وتطلق فى نفوسنا خوالج الحياة ونعاطيها شيئا من العطف مالا نعاطيه لغير الأحـــياء ، وليس لها فضل ظاهر على عامة الجماد إلا بما تخيله : الناظر من حرية الإرادة ومحاكاة للحياة [١]».

وبسر هذا الإيمان عكف العقاد على البحث من أجل المعرفة لذاتها يطلبها لنفسه وينشرها على الناس ونزه قلمه من الخوض فى سفساف الأمور أو التماس الشهرة من أى سبيل فهو يقول « ما أغنانا عن إنفاق المال

---

(١) من بحث للدكتور عثمان أمين بالعدد ٧٦ من مجلة العربى مارس ١٩٦٥ .

والصبر على المطالعة والمراجعة إن كان غاية ما نبغيه الكسب والرواج ؟ لقد كان أيسر جدا أن نضع القلم على الورق بغير مطالعة ولا مراجعة فنخط به قصة من قصص الشهوات التى تروج وتحسب عند الأغرار من فتوح الإبداع والتجديد فإن لم تكن تأليفا فلتكن ترجمة ، ولتكن من قبيل الصور العارية التى تملأ المكتبات مخطوطة ومرسومة ، ولا تعب فى ترجمتها ولا كلفة ولا صعوبة فى البحث عنها ... كان ذلك أجدى علينا لو أردنا الربح والراحة ، وكان ذلك غنما عند هذا (الواغش) البشرى الذى لا يتورع من خسة الافتراء بغير بينة ولا حياء » [١] .

وبسر هذا الإيمان العميق بالحرية كانت معظم عبقريات العقاد لأعلام العروبة ليقدم لشباب العرب فى كل مكان القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى يستثير هممهم إلى النهوض والسعى فى طريق الحرية والتحرر .

إنه كان يؤمن بحرية الإنسان فى كل مكان وكان من الفطرة السليمة أن يبدأ بنفسه ثم بإخوانه فى الوطن العربى الكبير حتى أصبح العقاد علما من أعلام الدعوة إلى القومية العربية بما أحيا من تراثها الخالد وبما كتب لها من طريف آرائه وكتاباته وبمادعا إلى الحرية فى كل جزء من أجزاء الأمة العربية .

العقاد الناقد

قرأت للعقاد مقالا فى إحدى المجلات[٢] يعرض فيه كتابا فى النقد فراعنى موقف العقاد العظيم من مؤلف الكتاب – وهو من أساتذة الأدب – إذا أخذ يضع أمامه قواعد النقد كما يراها العقاد فى رفق وأناة وكأنه الأستاذ أمام تلميذه ، يرشده ويوجهه ويثنى عليه إذا أصاب ويرده إذا أخطأ بالحجة والمنطق السليم حتى يبلغ به أقصى ما يرجوه أستاذ لتلميذه من نجاح .

وقد أوجز العقاد هذه القواعد فى قوله « إن مدارس النقد جميعا يوشك أن تنحصر فى ثلاث :

---

(١) المرجع السابق .   (٢) عدد مارس – إبريل من مجلة قافلة الزيت .

مدرسة التحليل النفسى ، ومدرسة الدراسة الاجتماعية ، ومدرسة الاذواق الفنية .

ومدرسة التحليل النفسى هى أقرب المدارس إلى الرأى الذى ندين به فى نقد الأدب ونقد التراجم ونقد الدعوات الفكرية جمعاء لأن العلم بنفس الأديب أو البطل التاريخى يستلزم العلم بمقومات هذه النفس من أحوال عصره وأطوار الثقافة والفن فيه وليس من عرَّفنا بنفس الأديب فى حاجة إلى تعريفنا بغرض وراء هذا الغرض المطلوب ولا هو فى حاجة إلى تعريفنا بالبواعث الفنية التى تميل به من أسلوب إلى أسلوب .

وللنقد كما تقدم مدرسة أخرى محترمة كثيرة الأنصار فى العصر الحديث على الخصوص . بعد استفاضة البحوث حول الدعوات الاجتماعية وعلاقة الأديب بمطالب عصره ، وموضع الملاحظة على هذه المدرسة أن الذى يعرّفنا بأحوال المجتمع وحسب لا يستطيع أن يعرفنا بأسباب الفوارق الكثيرة التى تشاهد بين عشرات الأدباء من أبناء العصر الواحد ولا غنى له عن الرجوع إلى النفسيات مع التعويل على الاجتماعيات فى مسائل الأدب والتاريخ .

أما المدرسة الفنية فهى مدرسة البلاغة والذوق ومدرسة المعانى الرائقة والتعبير الجميل وهى تلجئنا لا محالة إلى ذوق الأديب وذوق الناقد على السواء ومتى وصلنا إلى الذوق فقد وصلنا إلى النفسيات ووصلنا قبلها إلى الاجتماعيات على الإجمال » .

ثم يختتم هذا الإيجاز بتبيان ما يشترط فى الناقد قبل أن يقدم على حمل أمانة النقد فيقول « إن الناقد الذى توافرت له أداة النقد من المعرفة واللغة والأمانة والاطلاع على مراجع النقاد هو أديب قادر على الإنتاج مخصب القريحة بثمرات الإجادة والافتتان مميز للمحاسن غير مقصور الفهم على تمييز النقائص والعيوب لأنه عارف بالقدرة التى تنتج المحاسن

وترتفع به إلى الإجادة فى التفكير والتعبير وقل أن يحتاج الناقد إلى من يعلمه مواطن العيوب مع علمه بمواطن الحسنات لأن أجهل الجهلاء بالبناء قد يدرك عيوب القصور والصروح كما يدرك عيوب الخصاص والأكواخ » .

والعقاد الناقد قد أخذ نفسه بشروطه ولم يقصر فى تحصيل أو طلب علم فاحتل مكانته بين النقاد المعاصرين عن جدارة واستحقاق .

ولقد تنوعت كتابات العقاد فى النقد فكتب عن الموسيقى والتصوير والنحت والأدب والشعر كتابة الدارس المتمكن وهى جميعا تربطها وحدة الفن وإن اختلفت طرائق التعبير .

لكن معركته الكبرى التى خاضها منذ مطلع حياته إلى آخرأيامها كانت معركته من أجل الشعر مع البون الشاسع بين البدء والنهاية .

لقد بدأ هذه المعركة – مع زميليه المازنى وشكرى – داعية عنيفا لتجديد الشعر وتحطيم طواغيت المدرسة القديمة التى عرفت باسم « مدرسة الإحياء والبعث » والتى تزعمها البارودى ومن بعده شوقى ونادى العقاد بتحرير مضمون الشعر حتى يصبح تعبير النفس عن خلجاتها ومشاعرها الإنسانية والطبيعة وحقائق الكون وصورة لروح الأمة لا تقف عند ظاهر الأسماء والتواريخ بل تعكس ما يعتلج فى الضمير ويثور داخل الصدر .

وكان لابد لتحقيق هذا المضمون الجديد للشعر من تحرير الشاعر من الصياغة القديمة ونقوشها الزخرفية وقوافيها المعروفة ، فدعا العقاد إلى ذلك بل تطرف فى دعوته حتى نادى بالشعر المرسل المتحرر من القافية وإلى إعادة النظر فى الأوزان والقوافى بحيث يدخل الشعراء عليها ما يريدون .

فهو يقول عام ١٩١٤ فى تقديم الجزء الأول من ديوان المازنى « لقد رأى القراء بالأمس فى ديوان شكرى مثلا من القوافى المرسلة والمزدوجة

والمتقابلة ، وهم يقرءون اليوم فى ديوان المازنى مثالا من القافيتين المزدوجة والمتقابلة ولا نقول إن هذا غاية المنظور من وراء تعديل الأوزان والقوافى وتنقيحها ، ولكنا نعده بمثابة تهيؤ المكان لاستقبال المذهب الجديد ، إذ ليس بن الشعر العربى وبين التفرع والنماء إلا هذا الحائل ، فإذا اتسعت القوافى لشتى المعانى والمقاصد وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل ، ثم لا تطول نفرة الآذان من هذه القوافى لا سيما فى الشعر الذى يناجى الروح والخيال أكثر مما يخاطب الحس والآذان ، فتألفها بعد حين وتجتزىء بموسيقية الوزن عن موسيقية القافية الواحدة » .

وأخذ العقاد يبدىء ويعيد - ومعه صاحبه المازنى - فى شرح مذهبهما الجديد لكن قليلا من الناس يستمعون له بل الأغلبية منصرفة إلى شوقى وحافظ وتقديس روائعهما فكان لابد من حمل معول الهدم لتحطيم هذه الأصنام - كما أعتقد - وإظهار فساد مذهبها الشعرى الذى لا يعنى بوحدة القصيدة ولا بالتعبير الصادق عن النفس إزاء الحياة والكون فكان كتاب « الديوان فى الأدب والنقد » الذى صدر فى عام ١٩٢١ وكتب فيه المازنى عن حافظ وهاجم فيه العقاد شعر شوقى هجوماً عنيفاً بدأه مخاطبا شوقى بقوله « اعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا عن يعددها ويحصى أشكالها وألوانها وأنه ليس مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ما هو ويكشف عن لبابه وصلة الحياة به وليس همّ الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط السمع والبصر وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم فى نفس إخوانه زبدة ما رآه وما سمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه وإذا كان وكدك من التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ثم تتذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أشياء حمراء أو خمسة بدل شىء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك

وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، وصفوة القول إن المحك الذى لا يخطىء فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء وإن كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيًّا ووجدانا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية » .

وظل العقاد يدافع عن رأيه طول حياته وآتت توجيهاته ثمرتها وأصبح لمدرسته تلاميذ لمعت أسماؤهم فى سماء الشعر العربى .

لكن ما أن أهلت الثلاثينات وأخذت تنتشر موجات الشعر الحر الذى تحرر من الشكل التقليدى للقصيدة العربية وحطم قافيتها وجعل الوحدة الأساسية التفعيلة » فالبيت يتألف من ثلاث تفعيلات أو أقل أو أكثر حسب حاجة المعنى وما يتطلبه المضمون » حتى نرى العقاد يسترد حماسه القديم وعنفه الشديد ويبدأ حملاته العنيفة على هذا الشكل الجديد للقصيدة مدافعا أقوى الدفاع عن القيم الموسيقية للقصيدة العربية ويصدر هذا الدفاع فى كتابين (اللغة الشاعرة) و (أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب) .

وظل حتى آخر أيامه بوصفه مقرر لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون يحارب هذا الاتجاه الجديد فى الشعر كجزء من دفاعه عن اللغة الشاعرة .

رأيه فى المرأة

كثيرا ما نافس العقاد – فى نظر بعض الناس – توفيق الحكيم فى لقب « عدو المرأة » لكن الواقع ينفى عن كليهما هذا العداء المدعى .

ولقد دافعت إحدى بنات حواء[1] عن العقاد ورأيه فى المرأة فقالت :
« قال العقاد المرأة للبيت أولا .. فلتعد المرأة لحظيرتها الطبيعية .. لكن ما عناه العقاد (بالبيت) هو الرمز الكبير الذى يذكر (المرأة) أنها ليست (الرجل) وأن انتصارها ليس فى أن تحقق التشابه الكامل بينها وبينه - مثل الزنجى الذى يصبغ شعره أصفر ليحقق العدل الاجتماعى بين البيض والسود ناسيا أن العدل الاجتماعى هو أن يحصل الزنجى على حقه فى اعتزازه بأنه أسود - أن تشعر المرأة بفخر أنها امرأة .. أنها بيت مسئول وحده عن طفل يسكنه تسعة أشهر ... مسئولية لا يمكن للرجل إن يزاحمها فيها .. وهذا الطفل ماذا نفعل به بعد ولادته ؟ نرميه للكلاب الضالة لأن السيدة أمه نسيت أنها خرجت لتعمل من أجل البيت ؟ إن صيحة العقاد لا تعنى أن تكف المرأة عن العمل ... ولكنها نذير حتى لا تضل عودتها إلى البيت .. وأين الإهانة فى هذا ؟ » .

« إن ما أراد أن ينبهنا إليه العقاد بلا ملق .. هو أن كل ما حصلت عليه المرأة فى العالم ليس سوى مظاهر وشعارات المساواة التى كسبها الرجل من المرأة بتكديس الإرهاق فوق رأسها .. إرهاق الشارع بكل جهده وعرقه وعنفه .. بالإضافة إلى مسئوليتها الكبيرة - والتى لا يمكن إلغاؤها - كامرأة وأم - وبقى جوهر المشكلة كامنا .. فالمجتمع مازال مجتمع الرجل .. يسن قوانينه ويصدر أحكامه ويوقع عقوباته وفكرته الدفينة عن المرأة بأنها إحدى ممتلكاته .. اختيارها محدد بمدى تصريحه وبدلا من سيد واحد كان للمرأة .. أصبح لها سيدان .. سيد فى البيت وسيد فى المكتب » .

والواقع أن العقاد كان يكبر وظيفة المرأة ويرى أن الأمومة وإعداد جيل المستقبل الإعداد الطيب ليست بأقل شأنا من الجهاد فى سبيل الرزق

---

(١) صافيناز كاظم بالأخبار عدد ٢٩ / ٦ / ١٩٦٤ .

ولا هى بأدنى شرفا من عمل الرجل ، لذلك كان يرى – كما جاء فى كتابه « المرأة فى القرآن الكريم » ألا محل هناك لما يسمونه معركة تحرير المرأة ولا للخصومة بين الجنسين :

« ملاك العدل والمصلحة بين الجنسين أن تجرى الحياة بينهما فى الأمة على سنة التعاون والتقسيم لا على سنة الشقاق والتناضل بالمطالب والحقوق وليس الخلاف بينهما بالخلاف الذى يفض بالصراع على كفاية واحدة يدعيها كلاهما فى مقام الخصومة ولكنه خلاف على كفايتين أيهما أصلح لهذه وأيهما أصلح لتلك وإن صلح كلاهما لكفاية الآخر فى كثير من الأحيان » .

وحظ المرأة بعد ذلك من أدب العقاد حظ ضئيل نسبيًّا إذا قيس بإنتاجه الغزير كما كان حظها من حياته وأثرها فيها قليلين .

ولعل ذلك يرجع إلى خلو هذه الحياة من المرأة اللهم إلا من أمه فى طفولته وتلك الغانية اللعوب التى حدثنا عنها فى قصته (سارة) .

وقد ذكر العقاد سبب عدم زواجه فى أحاديث كثيرة مرجعا ذلك إلى عدم الاستقرار فى حياته التى عانى فيها كثيرا من الاضطهاد وانقطاع أسباب الرزق حتى فاته القطار .

* * *

مؤلفاته

سئل العقاد عن أحب كتبه إلى نفسه فقال : فى الأدب :ابن الرومى ، وفى العبقريات : عمر بن الخطاب ، وفى الدراسات النفسية : أبو نواس ، وفى الفلسفة : من الله ، وفى الاجتماع : المرأة فى القرآن ٠

وكثيرا ما كان يشير إلى أن كتب الكاتب كبناته من العسير عليه أن يفاضل بينها لأن كلا منها يمثل جزءاً حيًّا من جهاده وتاريخ نضاله ، بل قطعة من روحه ٠

والعقاد كان غزير الإنتاج فأخرج ما يزيد على الثمانين كتابا نذكر منها كتاب « الله » الذى ترجم إلى الفارسية وعبقرية محمد ، وأبو الشهداء وعبقرية الإمام وهذه الكتب الثلاثة قد ترجمت إلى الفارسية والأردية والملايوية ٠

كما له فى العقيدة الإسلامية كتب الفلسفة الإسلامية ، والديموقراطية فى الإسلام ،والإسلام فى القرن العشرين ، ومطلع النور ، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، والإنسان فى القرآن الكريم ، والتفكير فريضة إسلامية وما يقال عن الإسلام ٠

ومن أشهر كتبه ابن الرومى وعبقريات المسيح وعمر والصديق ودواوين العقاد التسعة ثم (الديوان) و (مراجعات بين الآداب والفنون) وشعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى وغيرها كثير مما أثرى به العقاد مكتبتنا الأدبية ورفع به لنفسه ذكرا بين الخالدين ٠

وكما قاسى العقاد الكثير من الجحود وعدم التقدير فى مطلع حياته فإنه حظى بالشهرة والتكريم بعد ذلك ٠٠ لقد كرمه أعلام الفكر والأدب فى حفل تكريم خاص بمسرح الأزبكية يوم ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٤ كما كرمه تلاميذه وأصدقاؤه عند بلوغه السبعين بإصدار كتاب تذكارى عنه شاركوا فى كتابته واختارته الدولة عام ١٩٣٨ عضوا بمجمع اللغة العربية وفى سنة

١٩٥٦ عيِّن عضوا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وظل منذ تعيينه به مقررا للجنة الشعر ، وفى عام ١٩٦٠ منح جائزة الدولة التقديرية للآداب لعام ١٩٥٩ بعد أن رشحته لها خمس عشرة هيئة بين ثمانى عشرة وتسلم الجائزة ليلة عيد العلم فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٠ .

وكان قرار لجنة الجائزة هو التقدير الرسمى لمكانة العقاد فى الأدب العربى وقد جاء فيه :

« وقف الأستاذ عباس محمود العقاد حياته كلها على خدمة الفكر والأدب وقد ثابر على ذلك منذ شبابه الأول فقضى خمسين عاما فى المطالعة والتأليف حتى اشتهر بخصب التفكير وكثرة الإنتاج وقد كانت نظرته إلى الأدب نظرة جد لا نظرة لهو وتسلية ومما يدل على شدة إيمانه يجد الأدب وبعده عن لهوه وتسليته وفرة مؤلفاته حتى نيفت هذه المؤلفات فى منظوم القول ومنثوره على السبعين » .

* * *

مراجع البحث

١ - فى صحبة العقاد — محمد طاهر الجبلاوى

٢ - مع العقاد — دكتور شوقى ضيف

٣ - عباس محمود العقاد — دكتورة نعمات أحمد فؤاد

٤ - مؤلفات العقاد ٠

٥ - مقالات للعقاد بالصحف لم تجمع ٠

٦ - مقالات وأبحاث متفرقة فى الصحف والمجلات بمناسبة وفاة العقاد وذكراه الأولى ٠

الفهرس

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع	١٨٦٩ / ٩٨
I. S. B. N الترقيم الدولى	977-19-5268-4